

ثلاث قصص قصيرة عالمية

ثلاث قصص قصيرة عالمية

هـ.ج. ويلز، ا.ا.يو، ر.ل. ستيفنسون.

ترجمة: مُحَمَّد جاد عفيفي.

الطبعة: ٢٠٢٣



العربية للاعلام والفنون والدراسات الانسانية والنشر

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكو ر- الهرم – الجيزة - مصر

هاتف: ٣٥٨٦٧٥٧٦ ــ ٣٥٨٦٧٥٧٥

http://www.azhabooks.com

E-mail: info@azhabooks.com

بطاقة فهرسة أثناء النشر

ويلز ، هـ.ج. يو، ا.ا. ستيفنسون ، ر.ل. - ترجمة: **محمد جاد عفيفي**.- ثلاث قصص قصيرة عالمية

– الجيزة – أزهى ،٢٠٢٣

١٢٩ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٦ – ٣ – ٨٦٦١٧– ٩٧٧ - ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ٧٣٦٦ / ٢٠٢٣

ثلاث قصص قصيرة عالمية

تأليف

-بلاد العميان.. هـ.ج. ويلز

-الحشرة الذهبية .. ا.ا.يو

-قصة الشاب وفطائر الزبدة .. ر.ل. ستيفنسون

ترجمة

محمد جاد عفيفي

بلاد العميان

قصة: هربرت جورج ويلز

على بُعد ثلاثمائة من الأميال أو يزيد من قمة شيمبورازو أو مائة ميل فحسب من ركام الثلوج عند كوماتوباكس وفي أشد البراري وحشة في جبال الإنديز بالأكوادور هُناك مستقر بلاد العميان، في ذلك الوادي الجبلي المجهول الذي انقطعت أسباب اتصاله بالعالم الخارجي.

كان هذا الوادي في قديم الزمان يستقبل المُغامرين من أنحاء العالم بعد أن يجتازوا إليه ممرات جليدية محفوفة بالمخاوف ليصلوا في نهاية المطاف إلى مروجه الزاهرة، هكذا جاءت إلى الوادي أُسرة مُهاجرة من بيرو فرارًا من الاضطهاد الآثم لحاكم أسباني، وعقب ذلك حدث زلزال مندوبامبا الهائل الذي صحبه ظلام رهيب خيم على كيوتو لمدة سبعة عشر يومًا، وفارت المياه وهي تغلي في مجرى نهر توياجواشي وهلكت الأسماك في البحر فطفت على السطح فاقدة الحياة حتى جواياكيل، وتصدعت اليابسة في كل مكان على طول شاطئ المحيط الهادي وذابت الثلوج والجليد، وتفجرت المياه في طوفان مُهلك شنيع، وانشطر جانب بأكمله من سفوح الأروكا وهوى

مُنحدرًا كقصف الرعد فسد السبيل على بلاد العميان وأصبح إلى الأبد حائلًا بينها وبين أقدام المُستطلعين من الناس. غير أن أحد المُستوطنين الأوائل لهذه البلاد تصادف أن كان بقرب احد الممرات المؤدية إليها، عندما ارتجفت الأرض وزلزلت زلزالها، مما اضطره لأن يهبط إلى السفوح المُنخفضة وينسى زوجه وطفله وأصدقاءه وكل ما كان يملك هُناك ليبدأ الحياة من جديد، وقد بدأ الحياة من جديد حقًا ولكنه كان سقيمًا، ثم أصابه العمى ومات مُعذبًا في أغوار الجبال.

أما القصة التي جاءت على لسانه فقد أصبحت أُسطورة من بعده يذكرها إلى يومنا هذا أصل كورديللاس في جبال الإنديز.

ذكر الرجل في أسطورته السبب الذي دعاه إلى ركوب الأخطار عائدًا من بلاده التي هاجر إليها وهو بعد في سن الطفولة، ذلك الوادي الذي قال عنه أنه يحوي كل ما يخطر على قلب بشر، ففيه جداول ماؤها عذب رقراق، وفيها خضرة سُندسية، ومناخ مُعتدل، وأرض خصبة، وأشجار من الفاكهة دانية القطوف، وكانت هناك غابات كثيفة في أحد الجوانب تعصم سكان البلاد من غوائل العواصف والفيضانات، فقد كان الوادي مُنخفضًا بين الجبال تحف به من نواح ثلاث تلال يكسوها الجليد، وعندما كان يحين موعد ذوبان الجليد كان الفيضان ينطلق بعيدًا عن الوادي فينجو أهله من خطر التعرض لسيل جارف من الماء الجليدي.

ومُطلقًا لم تمطر السماء في تلك البلاد ولا كان الثلج يتساقط، وإنما كانت الأرض تستقى من ينابيع تخضر بمياهها المروج وتزدهر، فنعم

المستوطنون بعيش رغيد وكثرت أنعامهم وتكاثرت، ولكن شيئًا واحدًا نغص عليهم سعادتهم وكان كفيلًا بأن يفسدها أيما إفساد، فقد نزل بهم داء غريب، كان من نتائجه أن أُصيب بالعمى أطفالهم المولودون وكثير غيرهم من الأطفال الكبار، وكان هذا الرجل قد عبر الممرات على أمل أن يتوصل إلى تميمة من السحر أو دواء يشفي من العمى، ففي ذلك الزمن وفي مثل تلك الظروف لم يكن يخطر ببال أحد ظن عن الجراثيم، وإنما كان الناس ينسبون إلى الشر كل ما ينزل بهم من بلاء، وهكذا ظن الرجل أن ذلك الداء ربما يكون راجعًا إلى أن أولئك المُهاجرين الذي لم يكن بينهم قساوسة أهملوا في إقامة بناء للتعبد لدى دخولهم إلى الوادي.

ولقد أراد الرجل أن يبني ذلك المكان المُقدس في الوادي مُتواضعًا بسيط التكاليف وأن يكون له أثر في النفس بما يحوي من مُقدسات وأشياء مُباركة، وكان في حافظة الرجل سبيكة من الفضة كان في نيته أن يدفع منها ثمن الأدوية المُباركة، وكان الناس قد اشتركوا في جمعها بأموالهم وحليهم، ولكنه كذب عندما قال أن بلاده ليس بها شيء من المعادن الثمينة، وإني لأتخيل ذلك الرجل بعينيه التي خبا منها نور الإبصار، ووجهه الذي لفحته الشمس المُحرقة، واستبد بنفسه القلق وهو يقص قصته بسذاجة قبل أن يحدث الزلزال المريع على قسيس حاد النظرات أعاره أُذنا صاغية مُلتفتة.

وإني لأستعيد صورته الآن وهو يُحاول جاهدًا أن يعود إلى بلاده حاملًا معه التمائم الشافية من العمى وما واجهه من شعور الاستياء الذي لا حد له عندما بحث دون جدوى عن ذلك الممر الذي محاه الزلزال من الوجود.

أما ما صادفه بعد ذلك فليس لي به من علم، اللهم إلا معرفتي بما لاقاه من حتف أليم بعد ذلك بسنوات طويلة، وكانت قصة ذلك الرجل المسكين هي أصل الأُسطورة عن تلك السلالة من المكفوفين الذين ما يزالون يعيشون «هناك» نعيمًا بين الجبال.

وكان الداء ينتشر بين سكان ذلك الوادي الذي نسيه الناس، فقد غشيت أبصار الكبار من القوم وكلت أبصار الصغار، وأما الأطفال الذين وُلِدوا لهم فلم يُقدر لهم أن يبصروا إطلاقًا، وبرغم هذا كانت سهلة هينة في ذلك الوادي الغني المُنفصل عن العالم، لم يكن هناك أشواك نباتية ولا هوام ضارة شريرة، وخلت البلاد من الحيوانات المفترسة فلم يكن بها إلا قطعان اللاما الوديعة المُستأنسة.

وكانت الغشاوة تزحف على أبصارهم رويدًا، وتحجب عنها قوة البصر، حتى إنهم لم يكادوا يحسون بما يفقدون، وكانوا يقودون صغارهم فاقدي البصر هُنا وهُناك حتى أحاطوا علمًا بكل ما في الوادي، وعندما انتهى بهم الأمر إلى العمى المُطلق استمرت سُلالتهم وذويهم على مر الأيام.

وكان لديهم من الزمن ما سمح لهم أن يروضوا أنفسهم على السيطرة على النار التي كانوا يوقدونها بعناية في مواقد من الحجر، كانوا شعبًا بسيطًا لم يحظ بكثير من العلم، وإن كان لديهم بعض من فن (بيرو) القديمة وفلسفتها، وتتابعت الأجيال وما أكثر ما نسوا وما أكثر ما اخترعوا وابتكروا.

ثم خبت تدريجًا ذكرياتهم عن العالم الخارجي وأصبحت غير مُحققة، وفي النهاية لم يبق من تلك الذكريات إلا قصة آمن بها بعضهم، وظن أغلبهم أنها محض خُرافة.

وفي كل شيء ما عدا البصر، كان هؤلاء الناس أقوياء ذوي مقدرة؛ لقد ظهر بينهم رجل ذو عقل راجح مُبتكر، وكان لبقًا في الحديث يستطيع إقناع الناس واستمالتهم، ومن بعده جاء رجل على شاكلته، ثم ذهب الاثنان في طي الزمن وبقيت آثارهم في القوم الذين زاد على مر الأيام مُجتمعهم الصغير عددًا وفهمًا، فجمعت بينهم شئون الحياة وفضوا ما صادفهم من مشاكل اجتماعية واقتصادية، وجاءت أجيال من بعدها أجيال، إلى أن مرت عشرة قرون على رحيل ذلك الرجل حامل السبيكة الفضية الذي ذهب يبحث عن معونة إلهيه لقومه، ولم يُقَدر له أبدًا أن يعود، وحوالي ذلك العهد تصادف أن جاء إلى الوادي رجل من العالم الخارجي، وإليك قصة هذا الرجل.

كان الرجل مُسافرًا في بلد قُرب «كيوتو» وهبط الجبال إلى البحر وخبر أحوال الدنيا، وكان رجلًا ذكيًا له طريقة مُبتكرة في قراءة الكُتب، وقد استخدمه جماعة من الإنجليز كانوا قد جاءوا إلى الأكوادور ليتسلقوا الجبال، فيحل محل أحد الأدلاء السويسريين الذي نزل به المرض. وقد تسلق الجبال ها هُنا وهُناك، حتى حانت مُحاولة قهر جبل «باراسكوتوبل» أعلى قمم الإنديز، تلك المُحاولة التي راح ضحيتها وانقطع عن العالم الخارجي، وقد كتب عن الحادث عشرات المرات.

ولكن قصة «بوينتر» هي أجملها، وفيها يصف جماعتهم الصغيرة وهم يشقون طريقهم الشاق حتى وصلوا إلى أسفل آخر وأعظم جرف وكيف أقاموا لأنفسهم مأوى بين الجليد يقضون فيه سواد الليل على قطعة ناتئة من الصخر، ثم أنهم اكتشفوا غيابه فصرخوا يُنادون عليه ولم يرد لهم نداء وصاحوا من جديد وأطلقوا صفاراتهم، ولم يغمض لهم جفن طوال ساعات الليل الباقية.

وعلى أنوار الصباح المُشرق رأوا آثارًا دلتهم على سقوطه، وكان يبدو ضربًا من المُستحيل أن يسمعوا له صوتًا في سقطته فقد انزلق مُنحدرًا ناحية الشرق تجاه الجانب المجهول من الجبل، وعلى بُعد سحيق إلى الأسفل اصطدم بتل من الثلج وسقط وسط كُتلة من الركام الأبيض، واتجهت آثار سقوطه مُباشرة إلى حافة جرف مُخيف، وفيما وراء ذلك لم يكن له أثر يبدو للعيان، وعلى بُعد شاسع إلى أسفل استطاعوا أن يتبينوا على البُعد أشجارًا ترتفع في وادٍ ضيق محصور بين الجبال، تلك كانت بلاد العميان، ولكن أنَّى لهم أن يعرفوا ذلك ولا أن يُميزوها عن أي وادٍ آخر؟!

وقد روع المُغامرون بهذه المأساة فأوقفوا مُحاولتهم تسلق الجبل، واستدعى بوينتر للعودة قبل أن يقوم بِمُحاولة أُخرى، وإلى اليوم ترتفع هامة جبل باراسكوتوبتل التي لم تُقهر بعد، بينما غابت خيمة بوبنتر وسط الثلوج الشاهقة.

وأما نونيز الدليل الذي سقط فقد بقى على قيد الحياة؛ فعند نهاية المُنحدر هوى مسافة ألف قدم وسقط في سحابة من الثلوج على مُنحدر

ثلجي أكثر انحدارًا من سابقه، ومن هذا انحدر غائبًا عن وعيه، ولكن موضعًا من جسمه لم يصب بسوء ثم وصل إلى سفوح قليلة الانحدار.

وأخيرًا تدحرج واستقر ساكنًا تحوطه كومة من الثلج الأبيض صاحبته في طريق سقطته وأنقذت حياته، وعاد إليه وعيه وهو يظن بعض الظن أنه على فراش المرض، ثم تحقق من مكانه بذكاء الرجل الذي خبر الجبال، وخلص نفسه من الثلوج، وما لبث بعد قليل من الراحة أن رأى نجوم السماء، وظل هكذا مُنبطحًا على الأرض يتساءل في دهشة عن موضعه وعما حدث له، وتحسس أطرافه وجسمه، واكتشف أن فقد كثيرًا من أزرار سترته التي كانت مقلوبة على رأسه، أما سكينه فقد سقطت في جيبه، وكذلك ضاعت قبعته التي كانت مُثبتة برباط حول ذقنه، ثم تذكر أنه كان يبحث عن بعض الحجارة ليرفع بها جانبًا من جوانب المأوى، وتفقد فأسه الذي كان يتسلق به الجليد، فإذا هو الآخر قد فقد.

واستقر رأيه أنه لا بُد أن يكون قد هوى من عال، ونظر إلى أعلى على ضوء القمر ليرى العلو الشاهق الذي منه هبط ، وظل بُرهة يطيل النظر إلى ذلك الجرف الأبيض الشاحب وهو في علاه يُناطح السماء كأنه البُرج، وسحره جماله الغامض وقتًا ما، وفجأة انطلق يضحك ويصرخ في وقت واحد معًا.

وبعد قليل أدرك أنه كان قرب السفح الأسفل لمنطقة الثلوج وأسفل منه بعد ذلك المنحدر الذي يُمكن هبوطه، والذي أضاءه نور القمر، استطاع أن يرى منطقة خضراء تكسوها الصخور.

وبذل جُهدًا حتى استطاع أن ينهض على قدميه يستشعر الألم في كل موضع من جسمه، وانطلق يهبط والجليد يتدحرج من حوله حتى وصل إلى أرض الحشائش، وهناك ألقى بنفسه إلى جانب صخرة ضخمة وشرب قليلًا من زجاجة كانت بجيبه الداخلي، وسرعان ما راح في نوم عميق، وأيقظته شقشقة الطيور في ذلك الوادي البعيد المُنخفض.

وعَلِمَ أنه كان على نقطة عالية عِنْدَ قدم جرف مُنحدر، ومن فوقه كانت تمتد شاهقة إلى أعلى إحدى الجوانب الصخرية، وبين هذين الجرفين كان هُناك ممر يمتد من الشرق إلى الغرب وكان مُضيئًا بأنوار الصباح، وكان أسفل منه مُنحدر شديد الانحدار كذلك الذي وصل إليه، ولكن فيما وراء الثلوج ما يُشبه المدخنة رطبة بمياه الثلوج يستطيع أن يلجأ إليها المُتسلق إذا وجد نفسه في خطر، وفعلًا هبطها بأيسر مما كان يخطر بباله ووصل إلى جبل آخر مُنعزل، ثم تسلق صخرة في صعوبة لا تُذكر، فإذا هو على سفح مُنحدر تنبت به الأشجار، وتطلع من حوله ليرى أين هو، فوجد أعلى منه بقليل ممر يُؤدي إلى وادي أخضر حيث تبين مجموعة من الأكواخ الحجرية على صورة لم يألفها.

ومضى به الوقت سائرًا فإذا ضوء الشمس قد تحول عن الممر وضاعت على البُعد أناشيد الطيور وبرد الهواء من حوله وأعتم الفضاء، ولكن الوادي بما فيه من منازل قاتمة كان أمامه كأوضح ما يكون، وهبط سفحًا مُنحدرًا ولاحظت عينه – وكان شديد المُلاحظة – نباتًا غريبًا بين الصخور فاقتطع منه وريقات أكلها فساعدته على تحمل الجوع.

وعندما اقتربت الظهيرة اجتاز عُنق الممر ودخل إلى الوادي المُنبسط وإلى الشمس المُشرقة، وكان مُتعب الجسم مُتصلبًا فجلس في ظل صخرة وملأ زُجاجته من مياه ينبوع وشربها عن آخرها، واستسلم للراحة قبل أن يبدأ المسير مُتجهًا ناحية المساكن.

وكم كانت غريبة تلك المساكن في ناظره! بل أن الوادي بأجمعه كان يبدو شيئًا غير مألوف وأكثر غرابة من المنازل نفسها، وكانت غالبية المساحة من الوادي أرضًا مُنزرعة ومروجًا خضراء تُزينها زهور يانعة مسقية بعناية غريبة، ومن حول الوادي قام جبل عالٍ تنحدر منه مجرى مائي يبعث الري في جنبات الوادي، وعلى المُنحدرات العالية عن هذا الجبل كانت قطعان اللاما ترعى الحشائش، وظهرت هُنا وهُناك حظائرها مُنبثة على سفح الجبل.

وكانت القنوات تلتقي عن المجرى الرئيسي الذي يشق طريقه وسط الوادي، وعلى جانبيه قام سور مُرتفع بمقدار قامة الإنسان.

وهُنا وهُناك كانت ممرات مرصوفة بحجارة بيضاء وسوداء على نسق بديع، وكانت منازل القرية الرئيسية لا تشبه بحال منازل القُرى التي على الجبال، فقد قامت في صف مُتصل على جانبي طريق مُتوسط نظيف للغاية، غير أن واجهات المنازل التي كانت تُؤلف مجموعة من الألوان لم يكن بها من فتحات إلا الأبواب، أما النوافذ فلم يبد لها أثر.

وكانت الألوان الهمجية هي أول ما بعث في ذهن هذا الرجل المُكتشف فكرة العمى، ذلك أنه حدث نفسه قائلًا: لا بُد أن يكون الرجل الطيب الذي صنع هذا أعشى كالخفاش.

وهبط الرجل من المنحدر فوصل إلى النهر الجاري وسط الوادي ورأى جماعة من الرجال والنساء جالسين على أكوام الحشائش كأن يطلبون فترة من النعاس وقت القيلولة.

وعلى مقربة من القرية رأى بعض الصبية وعلى مقربة منهم ثلاثة رجال يحملون دلاء ويتجهون بها ناحية المنازل، وكان لباسهم من جلد اللاما، أما أحزمتهم وأحذيتهم فكانت من الجلد، وعلى رؤوسهم كانت قُبعات تتصل بها أغطية للآذان، وكانوا يسيرون مُتباطئين في صف واحد بعضهم في أثر بعض، وهم يتثاءبون كأنهم قضوا الليل بطوله ساهرين.

وكان في مظهرهم ما يُؤكد النجاح ويبعث في النفس شعور الاحترام نحوهم، مما دعا نونيز بعد لحظات من التردد أن يتقدم إلى مكان مكشوف من الصخرة وصاح صيحة تردد صداها في أنحاء الوادي.

ووقف الرجال الثلاثة ولوحوا برؤوسهم كأنما ينظرون حولهم، وتطلعت وجوههم هُنا وهُناك، وكان نونيز يشير إليهم وإن لم يبد عليهم أنهم رأوه، ثم اتجهوا ناحية الجبل على يمينهم وصاحوا مُجيبين على صرخة الرجل، وصاح نونيز مرة ثانية وثالثة فلما يروه، فقفزت كلمة «العمى» إلى أفكاره وقال لنفسه هؤلاء البلهاء لا بُد أن يكونوا عميان.

وأخيرًا بعد أن بح صوت نونيز من الصياح الشديد عبر النهر على قنطرة صغيرة ودخل إلى البلد من بوابة في الحائط واقترب من الرجال، وحينئذ تأكد له أنهم حقًا مكفوفو البصر، وتأكد كذلك أن هذه هي بلاد العميان التي تحدثت عنها الأساطير، واقتنع بصدق القصة التي سمعها يومًا ما، وأحس أنه قام بمغامرة رائعة!

وقف الرجال الثلاثة جنبًا إلى جنب وآذانهم بدلًا من عيونهم مُتجهة صوبه في وقع أقدامه الغريبة، وكانوا واقفين لصق أحدهم الآخر، ورأى نونيز أن جفون عيونهم مُغلقة وغائرة، وإن حدقات عيونهم ليس لها وجود، وكان في وجوههم تعبير عن الخوف والورع، وقد أصاخو إليه أسماعهم وأبدوا رأيهم فيه: في وقع قدميه القريب.

وقال أحدهم: في لغة اسبانية لا تكاد تبين: رجل أم روح نزلت علينا صخور الجبال؟

وتقدم نونيز بخطوات مُتئدة ثابتة وهو يستجمع في ذهنه كل القصص القديمة التي سمعها عن تلك البلاد الضائعة، ومر بخاطره ذلك المثل القديم:

(في بلاد العميان، الأعور يكون ملكًا) وكأن المثل كان بمثابة لما يجيش في خاطره من أفكار.

وسأل أحدهم: يا أخي بدرو من أين يأتي هذا الرجل؟

فأجابه: لقد هبط الجبال إلى بلدنا.

وقال نونيز: لقد جئت عبر الجبال من بلد على البُعد هُناك حيث يبصر الناس، جئت من جهة قُرب (بوجوتا) حيث يسكن مائة ألف نفس وحيث يمتد العمران إلى أبعد من مرمى البصر.

وقال بدرو هامسًا: البصر.. البصر؟

وقال رجل آخر: إنه جاء من الصخور.

ولاحظ نونيز أن قماش ستراتهم كان من طراز غريب، وأن كل رداء كان مُطرزًا بطريقة تختلف عن الآخرين.

وقد أحس بالخوف وهم يتقدمون إليه مادين أذرعتهم فرجع إلى الخلف هربًا من أصابعهم الفاحصة.

وقال الرجل الثالث الأعمى وهو يتتبع نونيز ويقبض عليه: تعالى هُنا.

وأمسكوا به وفتشوه ولم يقولوا شيئًا حتى انتهوا من هذه العملية، وصاح فيهم نونيز وقد أحس بأصبع يندس في عينه: باحتراس.

ورأى أنهم ظنوا عينه بجفنها المُتحرك شيئًا عجيبًا، مما دعاهم إلى تحسسها مرة أُخرى.

وقال بدرو: إنه مخلوق غريب يا كوريا، يا لشعره الخشن كشعر كوبر اللاما.

وقال كوريا وهو يلمس ذقن نونيز التي كانت نامية الشعر: أنه خشن كالصخور التي ولدته، ولكن ربما تنعم بشرته فيما بعد.

وأبدى نونيز بعض المقاومة وهم يفحصونه، ولكنهم أمسكوا به بقوة، وقال نونيز للمرة الثانية: احترسوا!

وقال الرجل الثالث: إنه يتكلم، لا بُد أنه رجل.

وصاح بدرو وه يلمس خشونة القماش في سترة نونيز: أوه! ثم قال يُحدثه: لقد وصلت إلى العالم إذن؟

قال نونيز: من العالم، عبر الجبال والثلوج هُناك جبل أعلى من هُنا بكثير بين السماء والأرض، جئت من العالم الكبير المُنخفض الذي بينكم وبينه رحلة اثنى عشر يومًا إلى سطح البحر، ولكنهم لم يلقوا بالًا إليه.

وقال كوريا: لقد قال آباؤنا أن قوة الطبيعة قد تصنع رجالًا، إنها الحرارة المُتبعة في الأشياء، الرطوبة والعفونة، العفونة.

ثم قال بدرو: لنأخذه إلى كبار قومنا.

وقال كوريا: ناد عليهم أولًا حتى لا ينزعج الأطفال، إن هذا الظرف عجيب

وتصايحوا جميعًا ثم ساروا يقودون نونيز إلى المساكن وفي مقدمتهم بدرو وهو ممسك به من يده.

وسحب نونيز يده قائلًا: إنني أستطيع أن أرى.

قال كوريا: ترى؟!

أجاب نونيز: أجل أرى، قال ذلك وهو يتلفت وراءه فتعثر في دلو بدرو.

وقال الأعمى الثالث: إن حواسه لم تكتمل بعد، إنه يتعثر ويتفوه بألفاظ عارية عن المعنى، اسحبه من يده.

وقال نونيز وبدرو يسحبه من يده: كما تريد.. ثم ضحك.

كان يبدو على هؤلاء الناس أنهم لا يعلمون شيئًا عن حاسة البصر، وقال نونيز لنفسه: حسنًا، في الوقت المُناسب أستطيع أن أُعلمهم.

وتناهى إلى سمعه أُناس يصرخون، ورأى جماعة من الرجال يجتمعون في وسط الطريق المُؤدي إلى القرية.

وعندما وصل إلى الحشد وجد أن اللقاء الأول بينه وبين أهل البلاد كان أصعب مما تصور وتوقع، وبدا المكان لعينه أوسع مما كان من قبل وظهر الطلاء الزري أغرب منه أولًا، واجتمع حوله جمهور من الأطفال والنساء والرجال، وقد ارتاحت نفسه لما رأى مسحة الجمال في وجوه النساء والفتيات، ولكن عيونهن كانت مُغلقة غائرة.

وتجمع الناس حوله يلمسونه بأيد ناعمة حساسة ويشمون ريحه ويستمعون بإنصات كل ما يصدر عنه من كلام، ومع ذلك فقد بقى بعض الأطفال والفتيات بمنأى عنه كما لو كانوا خائفين؛ وحقًا كان في صوته خشونة وجفاء إذا قُورن برخامة أَصواتهن.

وكان الرجال الثلاثة يحفون من حوله كأنهم يملكونه، وبين وقت وآخر كانوا يقولون للناس: رجل وحشي من الصخور.

أما هو فكان يقول: إنني من بوجوتا، بوجوتا هُناك عبر الجبال.

وقال بدرو: إنه رجل وحشي ويستعمل كلامًا همجيًا، هل سمعت عن كلمة بوجوتا التي يقولوها؟ لا أظن أن عقله قد اكتمل بعد، إنه لا يعرف إلا البسيط من الكلام.

وجاء صبي صغير فعض إصبع نونيز وقال له ساخرًا: بوجوتا!

وقال نونيز: نعم، إنها مدينة، وإني أتيت إليكم من العالم الكبير، وفيه حيث يتمتع الناس بالبصر ويبصرون.

وقال بعضهم: إنه يُدعى بوجوتا.

وقال كوريا: لقد تعثر في مشيه مرتين ونحن في الطريق إلى هُنا، خذوه إلى شيوخ القوم منا.

وفجأة دفعوا به من باب إلى حجرة مُظلمة للغاية لم يكن بها ضوء إلا ذلك الضياء المُنبعث من نار كانت مُشتعلة في ركن بعيد منها.

واندفعت الجماهير من خلفه وسدوا عليه ضوء النهار، وقبل أن يتمالك نفسه ويقف سقط على الأرض مُمدًا على قدمي رجل كان جالسًا في الحجرة، وفي ذات الوقت اصطدم ذراعه بوجه رجل آخر، وأحس بنعومة ذلك الوجه، وسمع صرخة ملؤها الغضب، وجرى صراع بينه وبين أيادي كثيرة امتدت إليه، وكانت بالنسبة له معركة خاسرة ولذا لزم السكون.

وقال نونيز مُعتذرًا: لقد وقعت لم يكن باستطاعتي أن أرى في هذا الظلام.

وسادت فترة من السكون كان القوم يُحاولون فهم حديثه، ثم قال كوريا: إنه حديث التكوين، إنه يتعثر وهو يمشي ويخلط حديثه بكلام لا معنى له.

وقال آخرون عنه أشياء لم يفهمها فهمًا كاملًا.

وقال يسألهم: هل تسمحوا لي بالجلوس؟ لن أُقاوم مرة ثانية.

وتشاوروا فيما بينهم وسمحوا له بالنهوض، وبدأ رجل يتقدم في السن يستجوبه، وبدأ نونيز يُوضح ما خفي عن هؤلاء الناس من العالم الخارجي

الذي هبط إليهم منه، وتحدث عن السماء والجبال ومُتعة البصر ومثل هذه المواضيع التي أدهشت هؤلاء الناس الذين جلسوا في الظلام من حوله في بلاد العميان.

ولكن الشيء الذي لم يكن يتوقعه أبدًا أنهم لم يُصدقوا ولم يفهموا حديثه الذي قاله، بل إنهم لم يفهموا كثيرًا من كلامه، فقد مرت على هؤلاء القوم أربعة عشر جيلًا وهم مكفوفو البصر ومُنقطعون عن العالم الخارجي المُبصر، وكانت الأسماء التي تُطلق على البصر وما يقع عليه البصر قد تغيرت في لغتهم أو انقرضت.

وأصبحت أُسطورة العالم البعيد الذي انقطعوا عنه قصة يحكونها للأطفال، والظاهر أنهم كانوا قد وطنوا أنفسهم على أن يقطعوا صلاتهم بكل شيء فيما وراء السفوح المُنحدرة التي تحيط ببلادهم.

وقد ظهر بينهم رجال فاقدوا البصر أُوتوا حظًا من العلم والحكمة وناقشوا كل المُعتقدات التي ورثوها من قديم الزمن أيام أن كان أجدادهم يتمتعون بحاسة البصر، وانتهى بهم الأمر أن نبذوا مثل تلك المُعتقدات كأنها خيالات وأوهام، واستبدلوها بإيضاحات جديدة مقبولة عقلًا.

وبفقدهم حاسة البصر ضاعت معه نسبة كبيرة من ملكة الخيال والتصور، وأصبحت لهم بدلًا منها تصورات سمعية وحسية تعتمد على آذانهم الحادة، وأطراف أصابعهم الحساسة.

وقد أدرك نونيز كل هذا إدراكًا بطيئًا وعلم أنه لن يتوصل إلى الحصول على إعجابهم به واحترامهم لأصله ومواهبه لأنهم اعتبروا إيضاحاته على

أنها أفكار مهوشة لمخلوق جديد، فأصبح لِزامًا عليه أن يكف عن الكلام، وأن ينصت إلى إرشاداتهم.

وكان أكبرهم سنًا يُوضح له أسرار الحياة والفلسفة والدين، فشرح له كيف أن الدنيا (وكان يقصد الوادي الذي يعيشون فيه) كانت في قديم الأزل فجوة خاوية في الصخر ثم نشأت بها جمادات لا تتمتع بالحس، ثم اللاما وقليل من المخلوقات الأُخرى التي تتمتع ببعض الحواس.

ومن بعد هؤلاء خُلِقَ البشر وأخيرًا الملائكة الذين يُمكن سماع أناشيدهم وحركاتهم هُنا وهُناك، ولكن لا يُمكن لمسهم، وقد حار نونيز للغاية في فهم ما يقصدون حتى عَلِمَ أن الأمر قد استغلق عليهم فظنوا الطيور ملائكة تُغرد في الشجر.

واستطرد الرجل يتكلم عن الزمن فقال لنونيز إن الزمن ينقسم إلى الدفء والبرودة، وهذا هو تأويل الكفيف لليل والنهار، وأنه من المُستحسن أن ينام الإنسان في الدفء (ألنهار) ويعمل أثناء الليل، ولذا كان الواجب أن تكون القرية نائمة لولا وصول نونيز.

وقال الرجل المُسن أن نونيز قد خُلِقَ خصيصًا ليخدم أغراضهم، ورغم أنه كان يتعثر كثيرًا ويبدو عليه ضعف في العقل، إلا أنه لا بُد أن يفعل ما في وسعه كي يتعلم.

وفي تلك اللحظة تهامس الناس عند مدخل الحجرة بعبارات التشجيع، وقال الرجل: إن الليل قد تقدم (لأن النهار في رأيهم كان ليلًا) وأنه من الأفضل للجميع أن يذهبوا إلى مضاجعهم.

وسأل نونيز إذا كان يعرف كيف ينام فأجاب نعم، وطلب طعامًا قبل أن يأوى إلى فراشه.

وجاءوا له بطعام من لبن اللاما، وخبز جاف مملح، وأدخلوه إلى مكان بعيد حيث أكل بعيدًا عنهم، ثم أخذوه لينام حتى توقظهم برودة الجبال فيبدأون يومهم الجديد، ولكن نونيز لم يستطع إلى النوم سبيلا.

وظل جالسًا حيث تركوه يُقلب في رأسه كل ما لم يكن يتوقع من ظروف صاحبت وصوله، وبين وقت وآخر كان يضحك بينه وبين نفسه مسرورًا أحيانًا وغاضبًا أُخرى، وقال يُحدث نفسه: ضعيف العقل، وليس له حواس بعد! هؤلاء الجهلة، لا يدركون أنهم يسيئون إلى مبعوث السماء إليهم ليكون لهم مَلِكًا وعليهم سيدًا، أرى أنه من الواجب عليّ أن أردهم إلى سواء السبيل، دعني أُفكر، دعني أُفكر... وكان لا يزال في تفكيره عندما أذنت الشمس بالمغيب، وكان نونيز مُغرمًا بكل ما يملأ العين من جمال.

ولقد خُيِلَ إليه أن هذا الفيض من الأشعة الذي انبسط على مساحات الثلج الواسعة وعلى جبال الجليد التي تحيط بالوادي من كل جانب أنه كان أجمل ما وقع عليه بصره.

وانتقلت عينه من هذا الجمال الرائع إلى قرية المكفوفين وحقولها المروية، وقد اشتملها الظلام، واستولى عليه شعور قوي فانطلق لسانه يشكر الله من كل قلبه بنعمة البصر.

وتناهى إليه صوت يُنادي عليه من القرية: هوه، بوجوتا، تعال هُنا!

وهنا وقف نونيز وعلى وجهه ابتسامة أنه سوف يثبت لهؤلاء بصفة قاطعة قيمة البصر للإنسان، سوف يبحثون عنه فلا يستطيعون إليه سبيلا.

وقال الصوت: إنك لا تتحرك يا بوجوتا.

وضحك بصوت خافت وخطا بحذر بعيدًا عن الممر.

وسمع الصوت يقول له: إن المشي على الحشائش ممنوع يا بوجوتا، فلا تفعل ذلك.

ووقف نونيز مُندهشًا، إنه هو نفسه لم يكد يسمع ما أحدث من صوت في مشيته، وعاد إلى الممر وقال: ها أنذا.

وقال له الأعمى: لماذا لم تأت عندما ناديتك، أم من اللازم أن تُساق كالطفل! ألا تستطيع أن تسمع وقع خطواتك على الممر وأنت تسير؟

وضحك نونيز قائلًا: إنني أرى الممر.

وقال الأعمى: لا وجود لتلك الكلمة (يرى) فكُف عن هذا العبث واتبع صوت خطواتي.

وسار نونيز من خلفه وبه شيء من الغضب وهو يقول لنفسه: إن دوري سيأتي.

وخاطبه الأعمى قائلًا: سوف تتعلم، ولديك الكثير في هذا العالم لتتعلمه.

وقال له نونيز: ألم يقل لكم أحد أن «الأعور في بلاد العميان ملك»؟!

وسأله الأعمى بغير اكتراث وهو يلتفت خلفه: ماذا تقصد بكلمة أعور؟

وانطوت أربعة أيام ولم يصبح ملكًا كما كان يتمنى.

لقد تحقق أن آماله من الصعب تحقيقها عما كان يتوقع، وجعل يُفكر في وسيلة يتغلب بها على هؤلاء القوم، وطوال هذه الأثناء كان يُؤدي ما يُكلف بعمله، وتعلم كذلك أحوال الناس وعاداتهم، ولكن العمل أثناء الليل كان مُتعبًا للغاية، فاستقر رأيه أن يُغير هذا النظام.

وكانت حياة هؤلاء الناس بسيطة شاقة، وكانوا يعرفون الفضيلة والسعادة كما يعرفها غيرهم من البشر، وكانوا يعملون ولكن لا يجهدون أنفسهم كثيرًا، وكان لديهم من الطعام والكساء ما يكفي حاجتهم، وكان لهم أيامًا ومواسم، وكان للموسيقى عندهم نصيب كبير، وكان لديهم نسل قليل العدد من الأطفال، وكانوا يتنقلون في عالمهم المُنظم على وجه من الثقة والدقة يثير العجب، وكان كل ما تقع عليه العين قد صُنِعَ ليخدم مطالبهم.

كانت هُناك ممرات تتفرع من وسط الوادي، وتلتقي بعضها ببعض في زوايا، وكان في طرف كل ممر علامة تُميزه عن غيره، ولم يكن في هذه الممرات أو على الأرض المُنزرعة أية عوائق أو عقبات، وكانت حواس هؤلاء الناس قد أصبحت حادة لدرجة عجيبة، فقد كان في استطاعتهم أن يسمعوا رجلًا على بُعد اثنى عشر قدمًا إلى درجة إدراك نبضات قلبه، وكانوا يستعينون بنغمات الصوت ليعبروا، واستعملوا في فلاحة ارضهم الأدوات المُختلفة كأحسن ما

تُستعمل تلك الأدوات، أما حاسة الشم عندهم فكانت قوية أيما قوة، حتى أنهم كانوا يُميزون الروائح بعضها من بعض كما يفعل الكلب، وكانوا يربون اللاما التي تعيش على الصخور بشيء من اليُسر، ولم يتحقق نونيز من ثقتهم بأنفسهم ويُسر حركاتهم إلا بعد أن تحداهم.

والحق أن نونيز لم يتحداهم إلا بعد أن فشل في إقناعهم، ففي بداية الأمر حاول في مناسبات كثيرة أن يُحدثهم عن حاسة البصر، فقد قال لهم: اسمعوا، أيها الناس تبدو لكم من ناحيتي أشياء غريبة عليكم.

وقد استمع له ذات مرة رجل أو رجلان أطرقا له السمع فبذل ما في وسعه ليُوضح معنى أن يتمتع الإنسان بالبصر.

ومن بين من استمعوا له فتاة كانت أجفان عينيها أقل احمرارًا وغورًا من غيرها، حتى ليظن الناظر إليها أنها تُغمض عينيها.

وكان نونيز يأمل أن يقنع هذه الفتاة بالذات؛ فتحدث عن بدائع الرؤية وتأمل الجمال في الجبال المُرتفعة الشاهقة والسموات وفضاؤها الذي لا يحد، وعظمة الشمس وجلالها عند الشروق، وكانوا يستمعون له بانتباه ولكن لم يُصدقوا من كلامه شيئًا، وسرعان ما سئموا كلامه، وتطرق إليهم الملل.

قالوا له ليس هُناك جبال ما، وإنما نهاية العالم هي تلك الصخور التي تعيش عليها اللاما، وفوق الصخور كان في اعتقادهم سقف أجوف يتساقط منه الندى والثلج، فلما قال لهم أن العالم ليس له حدود ولا سقف كما يظنون، اتهموا أفكاره بالفساد والشر.

وبقدر ما كان في استطاعته أن يصف لهم السماء وما يسبح في فضائها من السحاب وما يُزين في ظلامها من مصابيح الكواكب، كان وصفه وصفًا قبيحًا خاليًا من المعاني إذا قورن بالسقف الناعم الذي اعتقدوا بوجوده، فقد كان عُنصرًا من عناصر عقيدتهم أن سماء الدنيا كانت سقفًا ناعم الملمس، فلا عجب أن صدمهم في عقيدتهم عندما حدثهم عن السماء كما يراها هو.

وأقلع نونيز عن مُحاولاته في تفسير طبيعة الأشياء لهم ورأى أن يضرب لهم مثلًا في الفائدة العملية لحاسة الإبصار.

فذات صباح رأى بدرو على الطريق رقم ١٧ مُتجهًا نحو المنازل المُتوسطة، كان أبعد من أن تدركه أسماعهم أو تشمه أنوفهم.

فقال لهم نونيز: بعد قليل يصل بدرو إلى هُنا.

ورد عليه رجل مُسن قائلًا: إن بدرو ليس لديه أي عمل في الطريق رقم ١٧، وفي ذات اللحظة انحرف بدرو فجأة ودخل الطريق رقم ١٠ وسار مُسرعًا إلى البوابة مُتجهًا خارج القرية.

وسخروا من نونيز عندما لم يصل بدرو، وبعد ذلك الحادث أخبر نونيز بدرو أنه رآه على الطريق رقم ١٧ فأنكر بدرو ذلك، وبدأ يشعر بالكراهية نحو نونيز.

وبعد ذلك أقنعهم أن يسمحوا له أن يذهب إلى مكان بعيد مع أحدهم ووعدهم أن يصف لهم كل ما يحدث بين المنازل، وأبدى لهم مُلاحظات مُؤكدة عن تحركات أشخاص في ذهابهم وإيابهم، ولكن الذي

كان يعني هؤلاء الناس هو ما يحدث بداخل المنازل أو فيما خلفها، فلما سألوه عن تلك الوقائع لم يبد إجابة ما، وبعد أن فشلت مُحاولته هذه وما بدا منهم من سخرية في مُعاملته قر رأيه أن يستعمل القوة.

ففكر أن يأخذ فأسًا وينقض بها فجأة على رجل منهم أو رجلين فيلقي بهما أرضًا ليُبرهن لهم على ميزة البصر في معركة شريفة عادلة، ولما تدبر هذه الفكرة طويلًا وأمسك بالفأس عَلِمَ أنه من المستحيل أن يُخالف طبيعته ويعتدي على رجل ضرير.

وأصابه التردد واكتشف أنهم على علم بأنه يحمل فأسًا، ذلك أنهم وقفوا مُنتبهين وآذانهم مُتجهة إليه تنتظر ما يصدر من حركات.

وصاح به أحدهم: ألق هذا الفأس أرضًا، وهُنا أحس بنوع من الرعب مصحوب بالوهن، وكاد أن يخضع ويطيع ويصدع بالأمر، ثم دفع أحدهم إلى الخلف على حائط أحد المنازل وولى هاربًا خارج المدينة.

وعبر أحد المروج مُخلفًا وراءه آثارًا على الحشائش التي داسها وجلس قريبًا من طُرقاتهم، وأحس بتلك الطاقة التي تتدفق في الجسم قبل أن يقدم على معركة، ولكن أفكاره اختلطت عليه، وبدا يدرك أنه لا يستطيع أن يُحارب وهو قرير العين رجلًا يختلف معه في التفكير.

وعلى البُعد رأى جماعة من الرجال يحملون فئوسًا وعصيا قادمين من القرية في صف مُنتشر على الممرات مُتجهين إليه، وكانوا يتقدمون في بطء وهم يتحدثون بعضهم إلى بعض، ومن وقت لآخر كانوا يتوقفون يتنسمون الهواء وينصتون.

وضحك نونيز لما رآهم يفعلون ذلك ثم سكت، واكتشف أحدهم آثار نونيز في الحشائش وتحسس طريقه على الأثر.

وظل نونيز يُراقب تقدمهم البطيء لفترة خمس دقائق ثم أحس إحساسًا قويًا أنه لا بُد أن يبذل جُهدًا دِفاعًا عن نفسه، فوقف وسار خطوتين ناحية الجدار الذي يحف القرية، تقهقر قليلًا وواجههم، أما هم فوقفوا في شكل هلال ساكنين ينصتون إليه.

وكان هو أيضًا ساكنًا يقبض بيده على الفأس، وسأل نفسه هل يبدأهم بالهجوم؟ ومن جديد دوت في أُذنيه الكلمات: في بلاد العميان يكون الأعور ملكًا، هل يبدأهم بالهجوم؟

ونظر إلى الحائط المُرتفع الذي خلفه، كان أملس السطح من الصعب تسلقه، ومع ذلك فقد كان به منافذ كثيرة، وتقدم منه بعض الذين كانوا يقتفون أثره ومن خلفهم جاء آخرون من الطريق ومن المنازل.

أيبدأهم بالهجوم؟

ونادى أحدهم عليه: بوجوتا، بوجوتا، أين أنت؟

واشتدت قبضة نونيز على الفأس وتقدم يجتاز المروج إلى القرية، وما أن تحرك حتى اندفعوا إليه، فقال لنفسه: سأضربهم إذا امتدت إليّ يد أحدهم، أقسم على ذلك، سأضربهم.

وصاح فيهم: اسمعوا لي، إنني سأفعل ما أشاء في هذا الوادي، هل تسمعون سأفعل ما أريد وأذهب إلى حيث أحب.

وسرعان ما هجموا عليه بحركة سريعة رغم أنهم كانوا يتحسسون طريقهم إليه – كان مثلهم كمثل من يلعب لعبة «الاستخفاء» حيث كانوا كلهم مُغمضي الأعين ما عدا نونيز.

وصاح واحد منهم: اقبضوا عليه، وشعر نونيز أن من اللازم استجماع نشاطه وأن يتخذ قرارًا سريعًا.

فصاح فيهم بصوت تعمد أن يكون قويًا صارمًا: إنكم عُمي وأنا مُبصر، فهل يستوي الأعمى والبصير؟ اتركوني وشأني.

وكان صوته يهتز بما يعتمل في نفسه من ثورة الغضب.

قال له أحدهم: بوجوتا، القِ بهذا الفأس وابتعد عن الحشائش.

وبقدر ما كان الأمر مُضحكًا يستدعي الرثاء فقد امتلأت به نفس نونيز غضبًا فقال لهم وهو يرتجف غيظًا: سيصيبكم مني أذى كبير، اتركوني وشأني.. فوالله لتجدن فيّ غلظة إذا اقتربتم مني.

وأخذ يجري دون أن يعرف على وجه التحقيق إلى أين يتجه، وتحاشى أقرب العميان إليه لأنه كان من المؤلم أن تمتد يده إليه بالأذى.

وتوقف، ثم استدار ليهرب من صفوفهم التي كانت تقترب واتجه إلى فجوة واسعة، ولكن الرجال الواقفين قربها شعروا باقتراب خطواته فانقضوا واحدًا على الآخر يريدون أن يقبضوا عليه.

أما هو فقد قفز إلى الأمام وعَلِمَ أنه لا محالة واقع في أيديهم فرفع المعول وضرب بشدة فسقط أحد الرجال إلى الأرض وهو يصرخ ألمًا ومر نونيز من الفجوة.

ولكنه كان قريبًا من الطريق والمساكن، وكان هُناك رجال يحملون المعاول والعصي هُنا وهُناك.

وفي الوقت المُناسب سمع خطوات تعدو خلفه ورأى رجلًا طويل القامة يندفع إليه ويضرب في اتجاه الصوت الذي يسمعه، وهُنا فقد نونيز أعصابه فقذف الرجل بالمعول وسدد إليه الرجل ضربة أخطأته فصرخ نونيز وولى الأدبار.

وهُنا أخذ منه الخوف كل مأخذ فهام على وجهه يجري في ارتباك وهو يتعثر لاهتمامه بأن ينظر حوله في كل ناحية، وأخيرًا سقط بصوت مسموع.

وعلى البُعد كان هُناك باب في الحائط فاندفع مُنطلقًا إليه دون أن يكلف نفسه عناء النظر إلى من كانوا يقتفون أثره، وتعثر وهو يعبر القنطرة ثم تسلق الصخور فقابلته واحدة من اللاما مذعورة وولت هاربة حتى اختفت عن ناظره، وارتمى هو على الأرض يتنفس بصعوبة، وهكذا كانت نهاية المعركة.

وقضى خارج الوادي يومين كاملين محرومًا من الطعام والمأوى يُفكر في مُستقبله، وبينما كان غارقًا في تأملاته هذه كان يقفز إلى خاطره مصحوبًا بشعور السخرية والهزؤ ذلك المثل «في بلاد العميان يكون الأعور ملكًا» واستعرض في فكره وسائل مُحاربة هؤلاء الناس والتغلب عليهم فاتضح له استحالتها جميعًا، لم يكن لديه سلاح يقف به أمامهم وليس من السهل أن يحصل على سلاح ما.

وكان رجلًا مُتمدينا لا تستطيع نفسه أن تسول له قتل رجل ضرير

وهو هادئ النفس دون ما ثورة أو هياج، ولو أنه فعل ذلك لاستطاع بالطبع أن يفرض شروطه على هؤلاء الناس على أساس من التهديد بقتلهم جميعًا، ولكنه كان في حاجة إلى النوم إن عاجلًا أو آجلًا.

وحاول أن يبحث عن طعام بين الأشجار وأن يجد لنفسه مأوى يحميه من الصقيع المُتساقط أثناء الليل.

وحاول أيضًا بقليل من الجرأة صيد واحدة من اللاما ليذبحها ويأكل بعض اللحم منها، ولكن اللاما كانت تنظر إليه والريبة في عينيها ذات اللون الداكن وترغى وتزبد في فمها ثم تعدو بعيدة عنه.

وفي اليوم الثاني استولى عليه الرعب وأحس رعشة في جسمه وانتهى به الأمر أن تسلل إلى ناحية الحائط مُتجهًا إلى وادي العميان يعرض عليهم الشروط.

وسار بحذاء النهير وظل يُنادي حتى جاءه رجلان وأخذا يُحدثانه فقال لهما: لقد كنت أرعن أحمق، ولكن عذري أنني كنت حديث التكوين.

فقال أحدهما ردًا عليه أن حاله قد تحسن.

وأفهمهما أنه أصبح أكثر تعقلًا عن ذي قبل وأنه آسف أشد الأسف لكل ما صدر عنه.

وبكى نونيز لأنه كان ضعيفًا عليلًا، ووجد الرجلان في بكائه دلالة مُشجعة وسألاه إذا ما كان يزال يظن أنه يستطيع الرؤية.

فأجابهما: كلا، لقد كان ذلك نوبة من البله، هذه الكلمة تعني لا

شيء وأقل من لا شيء، وعندئذ سألاه عما يوجد فوقه، فأجاب: على مسافة تبلغ مائة مرة قدر قامة الرجل يوجد سقف صخري ناعم يُظلل العالم، وعاود الصياح مرة أُخرى قائلًا: وقبل أن تسألاني عن شيء آخر قدما لي بعض الطعام وإلا مِتُ جُوعًا.

وكان ينتظر منهم عقابًا رادعًا، ولكن هؤلاء المكفوفين كانوا قادرين على الصفح والعفو، وكان رأيهم في عقوقه وتمرده أنه دليل على بلاهته وانحطاط أهله.

وبعد أن جلدوه كلفوه القيام بأبسط الأعمال وأشقها، ولما وجد نونيز أنه ليس أمامه إلا هذا السبيل ليعيش استسلم وفعل ما أُمِرَ به.

ولزم فراش المرض بضعة أيام كانوا يرعونه أثناءها بالعطف والحدب، وقد قام بواجب الشكر نحوهم على هذه العناية، ولكن الذي سبب له مُضايقة شديدة أنهم أصروا على بقائه في الظلام.

وجاءوا إليه بأُولي الحكمة من العميان وحدثوه عن خُبث أفكاره وأنبوه بأسلوب شديد التأثير لِما كان في نفسه من شك بخصوص ذلك السقف، حتى أنه أصبح يرتاب إذا ما كان مُخطئًا في عدم رؤيته لهذا السقف.

وهكذا أصبح نونيز مُواطنًا في بلاد العميان وبدأ الناس يألفونه ويألفهم، وأصبحت الدُنيا فيما وراء الجبال بالنسبة إليه أبعد مما كانت وضربًا من التصور والخيال.

ومن الذين عَرِفَهُمْ في بلاد العميان سيده يعقوب، وكان رجلًا كريمًا عطوفًا في غير نوبات الغضب، وكذلك عرف بدرو ابن أخي يعقوب،

وتعرف أيضًا على مادينا ساروتي أصغر بنات يعقوب التي لم تُصادف إعجابًا كثيرًا في بلاد العميان؛ لأن وجهها كان بارز التقاطيع تنقصه النعومة التي يعتبرها الأعمى مثله الأعلى في جمال الجنس اللطيف.

وفي أول الأمر بدت لنونيز جميلة، ثم أصبحت في نظره أجمل إنسان بين الخلق جميعًا. ولم يكن جفناها المُغلقان حمراوين، ولا غائرين كما كانا عند غيرها من أهل البلاد، وكان يبدو عليهما أنهما على وشك أن يتفتحا في أي لحظة، وكانت أهداب عينيها طويلة، وهذه في بلادهم علامة القُبح الزائد، أما صوتها فكان خشنًا لم يعجب الشبان من أهل القرية فلم يكن لها رفيق أو حبيب.

ولقد أتى على نونيز حين من الدهر، ظن فيه أنه لو قُدِرَ له أن يتزوج فلا بُد أن يذعن للقدر ويقضي بقيه أيامه في بلاد العميان.

وظل يُراقب الفتاة ويتحين المُناسبات ليُقدم لها خدمات صغيرة، ولم يمض زمن طويل حتى اكتشف أنها تُوليه بعض الاهتمام.

وذات مرة التقى بها في اجتماع عُقِدَ في يوم من أيام الراحة، وجلسا جنبًا على ضوء النجوم الشاحب، ومن حولهما أنغام عذبة من سحر الموسيقى.

وواتته الشجاعة فأمسك بيدها، وردت هي على ذلك بحركة ضغط حنون، وفي مرة أُخرى كانوا يتناولون الطعام في الظلام، فأحس بيدها تبحث عن يده، وتأججت النار حينئذ فرأى على ضوئها بعض معاني الرقة والحنان في وجهها.

وسعى يومًا ما إليها ليُحدثها، وكانت جالسة في ضوء القمر تعمل على مغزلها، وقد جعلها فيضان الضوء الأبيض تمثالًا صُنِعَ من نور فضي

غامض، وجلس إلى جوارها واعترف لها بحبه، ووصف لها كيف أنها جميلة في ناظريه وكان في صوته نغمة العاشق المدله، وكان يتحدث باحترام وحنان أقرب قليلًا إلى الخوف والرهبة.

ولم تكن عاطفة الإعجاب قد مست قلبها من قبل، ولم تعطه جوابًا شافيًا مُحددًا رغم ما اتضح له من أن كلامه قد نال من نفسها موضعًا حسنًا أسرها وأبهجها.

ومن بعد تلك الليلة كان يُحدثها كلما سنحت الفرصة للقاء وأصبح وادي العميان عالمه وموطنه، لم تعد الدنيا الواسعة فيما وراء الجبال حيث عاش الناس في الضوء أكثر من أُسطورة خيالية، قد يحكيها لحبيبته يومًا ما، وفي شيء كثير من الخجل والهيبة حاول أن يصف لها ماهية حاسة البصر.

وكانت حاسة الرؤية في رأيها أجمل الخيالات الشاعرية ولكنها كانت تستمع إلى أوصافه لجمال الجبال الشاهقات السابحة في ضوء النجوم، كان مُحرمًا عليهما أن يأخذا في مثل ذلك الحديث.

كذلك لم تُصدق ما قال لها، إنما فهمته بين بين، وإن كان قد ظهر عليها سرور غريب، أما هو فقد بدا له أنها تفهم تمامًا كل ما يقول، وزايله الخوف الذي صاحب حبه وتشجع ففكر أن يطلب يدها من يعقوب ويصبح زوجًا لها، وهُنا أظهرت الفتاة خوفها وعوقت عليه هذا الطلب.

وعَلِمَ يعقوب من إحدى بناته الكبار أن صُغرى بناته مادينا ساروني ونونيز مُتحابان.

ومن بداية الأمر قامت مُعارضة شديدة في وجه هذا الزواج، لا لأنهم

كانوا يُقدرون ابنتهم، وإنما لأن نونيز كان في نظرهم مخلوقًا غريبًا غبيًا وكائنًا أدنى من المستوى العادي للرجل.

وقد عارضت أخواتها بشدة هذا الزواج الذي يجلب عليهم جميعًا الخزي والعار، ومع أن يعقوب كان قد بدأ يعجب بخادمه الغريب المُطيع فإنه رفض إتمام الزواج.

أما بقية الشُبان فقد غضبوا لفكرة إفساد جنسهم بالزواج من هذا المخلوق الدنيء، وتمادوا في الأمر فاعتدوا على نونيز بالسب والضرب، فدافع نونيز عن نفسه، فاعتدى عليهم واستفاد لأول مرة بميزة البصر، وبعد هذه المعركة لم يجرؤ أحد أن يمد إليه يدا بسوء، وإن ظلوا يعتبرون هذا الزواج أمرًا مُستحيلًا.

وكان يعقوب يحب ابنته حُبًا جمًا، وما أكثر ما أصابه من الحزن عندما ارتمت على كتفيه تبكي بكاءً مرًا، فقال لها مُواسيًا:

تعرفين يا ابنتي أنه أبله ذو عقل مُضطرب ولا يستطيع أن يفعل أمرًا على وجه من الصحة.

وقالت ساروتي باكية: إنني أعلم ذلك ولكنه أحسن حالًا عن ذي قبل وهو مُضطرد في التحسن، إنه متين قوي الجسم يا أبتِ وفي قلبه حنان وعطف وأرحم من أي رجل في عالمنا، وهو يحبني يا أبتِ وأنا مُتيمة في هواه.

وأصاب يعقوب الحُزن إذا عَلِمَ أنه لا سبيل إلى مُواساة ابنته، ومما زاد في حزنه أنه كان يُحب نونيز لأسباب شتّى.

وذهب يعقوب ليشهد مُناقشة موضوع الزواج في ذلك المجلس الذي عُقِدَ في حجرة مُظلمة خالية من النوافذ، وعندما حانت له فرصة الكلام قال عن نونيز: إنه أحسن حالًا مما كان، ومن المُحتمل جدًا أن نراه قد أصبح مثلنا.

وحدث أن أحد الرجال من كبار السن واتته فكرة: كان طبيبًا عظيمًا في قومه وكان يتمتع بآراء فلسفية وعقل مُبتكر، وكانت قد أعجبته فكرة علاج نونيز من شذوذه.

وذات يوم قال هذا الطبيب ليعقوب: لقد فحصت بوجوتا فاتضحت لي حالته عن ذي قبل وأظُن أ من المُحتمل جدًا علاجه.

وقال يعقوب: هذا كان أملي دائمًا.

وقال الطبيب الأعمى: إن عقله واقع تحت تأثير شيء.

وهُنا وافقه على آرائه غيره من كبار القوم.

وقال الطبيب: وما ظنكم بسر التأثير الواقع على عقله؟

وقال يعقوب: أجل حدثنا عنه.

قال الطبيب مُجيبًا على نفسه: إن بوجوتا يشكو من مرض في عينيه التي يُفترض فيهما أن تكونا تجويفين لعينين في الوجه، فهما عند بوجوتا متورمان إلى درجة كبيرة وله أهداب وأجفان يتحركان فعقله في حالة اضطراب مُستمر نتيجة لذلك.

وقال يعقوب: أجل، أجل.

وقال الطبيب: أظن أنني أستطيع أن أُؤكد أنه ما علينا لكي نُعالجه علاجًا كاملًا إلا أن نقوم بجراحة بسيطة هي استئصال عينيه.

وسأل يعقوب: وعندئذ تتحسن حاله؟

أجاب الطبيب: سيكون في غاية الصحة، ويصبح مُواطنًا صالحًا.

قال يعقوب: شكرًا لله على نعمة العلم، وأسرع من فوره إلى نونيز يُبشره بالآمال السعيدة التي لاحت.

غير أن يعقوب عندما أفضى إلى نونيز بتلك الأنباء السعيدة لاح له منه أنه تلقاها بشيء من البرود والاستياء.

ودعاه ذلك إلى أن يقول لنونيز: إنني لأظن من نبرات صوتك إنك لا تُبدي تجاه ابنتي شيئًا من الاهتمام.

وأما مادينا ساروتي فقد شجعت نونيز على مُواجهة الطبيب الأعمى.

وسألها نونيز: أُتريدنني على أن أفقد هبة البصر؟

فهزت رأسها نفيًا، ونكست رأسها على صدرها.

واستطرد قائلًا: إن البصر بالنسبة لي هو عالم بأكمله، هُناك أشياء صغيرة فيها جمال ومُتعة للبصر، الزهور المُنبعثة بين الصخور، تلك الدفة والنعومة من قطعة من الفراء، وجمال السماء على بُعدها وما يسبح في فضائها من سحائب بيضاء ناصعة أو سوداء داكنة، وساعات الغروب عندما تتألق الشمس في أُبهة من العظمة المُضيئة، والنجوم الألاءة في ظُلمة السماء كأنها الوشي اللامع في ثوب من المخمل الأسود.

وأنتِ يا حبيبتي، من أجلك فحسب أُريد أن أحتفظ ببصري لأرى وجهك الحلو الجميل، وشفتيكِ الحانيتين ويديكِ المُشتبكتين.

إن عيني هي التي أوقعتني في حبكِ، ويريد هؤلاء المُغفلون أن ينزعوهما لكي ألمسك وأسمعكِ ولا أعود أراكِ ثانية، ثم أضطر للبقاء هُنا تحت هذا السقف الصخري، وفي عالم الظلام الذي تقيدون به خيالكم! لا، إنكِ لا تُوافقين على أن أنتهي إلى هذا المصير.

وانتابه قلق مُقيت فسكت وترك موضوع الحديث.

وقالت له: كان بودي، وسكتت.

وقال لها: نعم يا عزيزتي؟

فاستطردت: كان بودي، لو أنك لم تتحدث على هذه الصورة.

سألها نونيز: أية صورة؟

فأجابت: أعلم أن البصر شيء جميل، وأنا أحب فيك الخيال، ولكن لا محل لمثل هذا الآن.

ثم أحس ببرودة واستأنف حديثه: الآن؟ قالها بصوت ضعيف وكانت تجلس صامتة.

واستطرد: أتقصدين أنه من الأفضل لي أن... ربما يكون أفضل لي أن أفقد...!

وبدأت الأُمور تتضح له سريعًا، وسرت في جسمه نوبة من الغضب، الغضب على حظه العاثر ومصيره المُظلم، وكذلك أحس بعطف نحوها سببه

نقص الفهم الذي كانت تُعانيه، وكان عطفًا قريبًا من الشفقة.

وقال لها: يا عزيزتي.

ورأى من شحوب وجهها مدى الجُهد الذي تُعانيه من أثر الضغط على نفسها حتى لا تنطق بما يُؤلم نفسه.

وطوقها بذراعيه، وقبلها في أُذنها، وجلسا صامتين.

وأخيرًا قال لها في صوت لطيف عذب، وإذا وافقت على ذلك؟

وهنا احتوته بين ذراعيها ونشجت بالبكاء وقالت بصوت مُختنق: أواه، ليتك تُوافق، ألا ليتك تُوافق.

ولم يغمض لنونيز جفن، ولا ذاق النوم طرفة عين طوال الأسبوع الذي سبق إجراء الجراحة التي كانت سترفعه من رتبة العبد الدنيء إلى مستوى المواطن الأعمى.

وبينما كان أهل البلاد ناعمين بالنوم الهنئ كان هو جالسًا يقلب الفكر، أو هائمًا على وجهه على غير هُدى يُحاول أن يجد للمشكلة حلًا، لقد أعطاهم جوابًا ووافق، ومع ذلك فما زال في حيرة من أمره.

وأخيرًا أشرقت الشمس في عظمة فتوجت هامات الجبال الناصعة البياض بأكاليل ذهبية من أشعتها، وكان هذا آخر يوم يتمتع فيه بأبصاره، وقابل مادينا ساروتي ودار بينهما حديث قصير.

قال لها: غدًا سأفقد بصري إلى الأبد.

قالت له وهي تضغط يديها في حسرة: واقلباه.

ثم استطردت: لن تشعر إلا بقليل من الألم، وأنك سوف تُقاسي هذا الألم من أجلي يا حبيبي، يا حبيبي، فإذا كان في استطاعة امرأة أن تفتدي هذه التضحية بقلبها وحياتها فإنني لا محالة سأُعوضك عن تضحيتك يا أعز مخلوق لدي، يا صاحب الصوت الرقيق سأعوضك عن بصرك.

وشعر برثاء عظيم نحوها ونحو نفسه واحتواها بين ذراعيه وقبلها وهو يتملى من وجهها الجميل لآخر مرة وودعها وودعته في كلمات هامسة.

وابتعد عنها في سكون وهي واقفة تنصت إلى خطواته المُبتعدة التي أوحت إلى نفسها شعورًا من الأسى جعلها تنفجر في بكاء مرير.

كان قد استقر عزمه على أن يقصد إلى مكان بعيد حيث تتألق الزهور البيضاء على خضرة المروج السندسية، وهُناك أراد أن ينتظر إلى أن تحين ساعة تقديم تضحيته.

وبينما كان في طريقه رأى نور الصباح كأنه ملاك في درع ذهبي يرتاد الوهاد فيكتسحها بفيض من الضياء.

وظن عند رؤيته لهذه الروعة أن ما صادفه في بلاد العميان من الأيام التي قضاها، والحب الذي وقع في شراكه لم تكن إلا أضغاث حلم مُخيف.

ولم ينحنِ مع الطريق كما كان يجب أن يفعل، وإنما تابع السير ومر من فتحة الحائط إلى الصخور وعيناه لا تحيد عن الثلوج والجليد الغارقة في بحر من النور.

ورأى هذا الجمال الذي لا يرقى إليه وصف، وسبح به الخيال إلى آفاق بعيدة فيما وراءه لن تقع عيناه عليه مرة أُخرى.

وفكر في ذلك العالم الأكبر الذي انفصل عنه، عالم كان مِلْكًا له، وبين الخيال رأى تلك المُنحدرات البعيدة التي بينه وبينهما آفاق، وفي وسطها بوجوتا موطن الجمال الرائع، حيث تبدو رائعة بالنهار ومُتأنقة ليلًا كالسر الغامض في ضمير الظلام.

وتخيل قصورها وتماثيلها وأيقن أنه يستطيع في يوم واحد أن يجتاز الممرات عبر الجبال ويقترب منها رويدًا رويدًا، وكذلك دار بخلده رحلة على النهر، يومًا بعد يوم من بوجوتا إلى عالم آخر أكبر بكثير عبر بلدان وقُرى وغابات وبيد قفار.

كل ذلك والنهر المُتدفق يجري ويجرب حتى يتسع شاطئاه في المصب، فتدخل فيه السُفن الضخام ويصل الإنسان إلى البحر اللانهائي بما فيه من الآلاف من الجُزر وبما تمخر فيه من مراكب تجري في رحلات لا تُعد ولا تُحصى حول العالم الأكبر.

وعند البحر حيث لا جبال تصد البصر يرى الناظر السماء لا في شكل قرص كما يراه في بلاد العميان، وإنما يراها قوسًا مُتناهي الزُرقة وفي وسطه النجوم في مداراتها، وتدور الشموس في فضائها كل في فلك يسبحون.

وتفقدت عيناه وهي تدور هُنا وهُناك تلك الستائر الثلجية، والغلالات البيضاء التي تكسو الجبال، وكنا في نفسه إليها شوق أقوى من

ذي قبل لو أنه سار من هذا الممر إلى ذلك التجويف الصخري فقد يصل إلى الأشجار التي تنبت على قطعة الصخر البارزة.

ثم ماذا بعد ذلك؟ قد يكون ذلك سهل المراس، ولربما وجد هُناك مرقى إلى الجرف (حيث سقط أول الأمر وهوى إلى بلاد العميان).

وإذا فشل في المرور عن طريق التجويف الصخري فهُناك مكان آخر إلى ناحية الشرق يُمكن اجتيازه ومنه ينفذ إلى منطقة الثلوج في منتصف المسافة إلى قمة الجبال الشاهقة.

ونظر خلفًا ناحية القرية، وأمعن النظر بإحكام، وفكر في مادينا ساروتي وكانت قد تضاءلت على البُعد، وتناهت في الصغر، واستدار ثانية وبدأ يصعد الجبل، الجبل الشرقي الذي ورائه كانت تشرق الشمس.

وعند غروب الشمس كان في طريقه إلى أعلى، كان قد تسلق أمكنة أعلى مما وصل إليها الآن، ومع ذلك فقد كان على ارتفاع عظيم، وكانت ملابسه قد تمزقت وأطرافه قد دميت، وكان به قطوع في أماكن شتّى من جسمه، ولكنه رقد هُناك كأنما نزلت عليه السكينة ولاحت على وجهه ابتسامة.

ومن المكان الذي استراح فيه بدا له الوادي كأنه ثقب في الصخور على بُعد ميل إلى أسفل، وأظلمت الدُنيا بما انتشر في الفضاء من ضباب وظِلال، ولو أن قمم الجبال من حوله كانت تشتعل بالنور والنار، وكانت الصخور القريبة منه تتألق جمالًا.

وعلى طول الممر ومضت ظلال من النور رائعة ساحرة، فاللون الأزرق يتدرج مع الطيف إلى اللون الأرجواني الداكن، ويتحول الأحمر رويدًا إلى لون السماء المنثورة بالنجوم، ولكنه لم يلق بالًا الآن إلى هذه الرؤى، فقد كان يكفيه أنه هرب من بلاد العميان التي ظن أنه سيكون فيها ملكًا.

واختفت أنوار المساء الرائعة، وانتشر ظلام الليل وهو ما يزال في مكانه مُمدًا في سكون، وفي نفسه شعور بالرضى، ومن حوله برد المساء، وأنوار النجوم.

كلمة عن القاص والقصة

هو هربرت جورج ويلز من أشهر الكُتاب الأنجليز، وُلِدَ سنة ١٨٦٦ من عائلة مُتوسطة، مُؤلفاته ذات طابع علمي اشتراكي وتهدف إلى لفت النظر إلى تطور العلوم، وتقوية الخيال عن طريق الإدراك الذي ينفذ إلى جوهر الحقيقة، ودقائق المعرفة.

ولقد وهبه الله خيالًا خصبًا، وبصيرة تخترق حجب الغيب، وتستشف ما وراء الطبيعة المحسوسة بالنسبة لإدراك الفرد العادي، ولذلك فإن آراءه تُعتبر تقدمية، وسابقه لعصره، الأمر الذي دعا بعض المُتزمتين ذوي الآراء الرجعية أن ينظروا إليه بمزيد من التحفظ ويقرأوا كتاباته بكثير من التشكك.

ولم يقتصر نشاطه في التأليف على التنبؤ العلمي، والكشف عن غوامض الكون ومكنوناته، بل تناول المشاكل السياسية والاجتماعية والتاريخية، وانتقد نُظم التعليم الضيقة الآفاق ونادى بضرورة تحقيق الفكرة العالمية في الثقافة التي تُؤدي إلى استقرار السلام، والقضاء على الخلافات القومية والجنسية التي هي محور الصدام بين الشعوب، والتي تكتوي بها البشرية في أتون الحروب.

ومات هذا العبقري سنة ١٩٤٦ بعد أن ترك مكتبة زاخرة بمؤلفات في مُختلف ميادين البحث.

بلاد العميان:

إن الذي يقرأ هذه القصة «يظن لأول وهلة أنها تسجيل لمُغامرة فاشلة قام بها ذلك الرجل المدعو نونيز، الذي ألقت به المقادير من أعلى الجبال إلى تلك البلاد المحصورة. ولكن القصة بهذا الشكل ليس لها معنى ولا مغزى ولا هي تتفق مع المنطق أو تدخل في عداد الإنتاج الفني للقصة.

أما الذي ينظر إلى هذه القصة نظرة التدقيق والتحليل فيجد من ورائها مغزى أراده المُؤلف ورسمه واضحًا بين السطور، ولو أنها في الظاهر معرض للوصف الشاعري، والخيال العبقري الفذ.

هذا الرجل نونيز وهو الشخصية الوحيدة في القصة والذي من حوله تدور كل الحوادث يرمز به المُؤلف إلى العالم المُكتشف الذي يسبق الزمن المُعاصر في أفكاره وأبحاثه، ويكون من نتائج ذلك أن تنقطع الصلة بينه وبين أهل عصره ممن يعيشون حوله ويختلطون به، ولا يصدقونه في أفكاره ونظرياته بل قد يذهبون إلى أبعد من ذلك فيتهمونه بالشذوذ الفكري أو الجنون.

وبلاد العميان التي هبط إليها نونيز مُصادفة ترمز في الحقيقة إلى العالم الذي نعيش فيه العالم الذي يضيق ببعض الناس بسبب قصر النظر أو الجهل الذي هو أشد بلاء وظلامًا من العمى.

وهؤلاء الناس العُميان الذين يعيشون في تلك البلاد النائية والذين لا يصدقون نونيز المُبصر ليسوا إلا أولئك الذين لا تتمشى أفكارهم مع التقدم العلمي ولا تُساير تطور المدنية لأن أصحابها يعيشون في ظلام

الخُرافة والجهل، وقد صورهم المُؤلف في القصة عُميانًا لا يبصرون، ولكنهم في عالمنا يبصرون في أضيق الحدود؛ أي يبصرون كما يبصر السجين في حُجرة مُغلقة مُظلمة، فالبصر الذي يتمتعون به لا ينفعهم في قليل أو كثير لأنهم لا يتعددون به حدود الزمان والمكان الذي يعيشون فيه، ولأن أبصارهم لا تمنحهم ملكة الخيال التي تفتح أمام العين مجالات الاكتشاف والابتكار العلمي، فهم إذن عُمي مُبصرون؛ لأن التي تُعمى ليست الأبصار، ولكن القلوب التي في الصدور.

وقد حاول نونيز دون جدوى أن يهدي العُمي إلى الأفكار الصحيحة التي يُؤمن هو بها ويعتقد أنها على حق فأصموا آذانهم وأصروا على ضلالتهم، وقد يئس منهم وضعف أمامهم وكادت أن تُؤثر عليه فلسفتهم الخاطئة فيعيش معهم إلى الأبد في ضلالة الجهل وعماه، لولا أن ارتدت إليه بصيرته وعاد إليه وعيه الفكري فقرر العودة إلى بلاده «بوجوتا» بلاد النور والحضارة وهي في القصة رمز المدنية والتقدم.

وفيما وراء بوجوتا يصف لنا المُؤلف البحر وما فيه من جزائر، والسماء المُتناهية وما يسبح في أفلاكها من نجوم وشموس تجري في مداراتها وتُسابق في فضاءاتها، وهذا بحق هو الخيال الصادق الذي يتوصل إليه الإنسان بالبصر السليم، وليس المقصود به الخيال الشاعري الذي يقف عند المظهر الجالي للأشياء، وإنما هو الخيال الذي يستند إلى النظريات العلمية والأفكار الفلسفية فيُؤدي في النهاية إلى أصدق الاكتشافات التي تُغير معالم الدنيا وتغلب وجه المدنية.

الحشرة الذهبية

قصة : إدغار آلان بو

منذ سنوات طويلة اكتسبت صداقة رجل يُدعى مستر وليام لجراند الذي كان ينحدر من إحدى أُسر الهيوجونوت العريقة، وكان غنيًا موسرًا يومًا ما، ثم حلت به كثير من الكوارث فأصبح فقيرًا رقيق الحال.

ونزح من نيو أورليانس موطن أُسرته، وذهب يطلب العيش في جزيرة سوليفان قرب شارلستون في كارولينا الجنوبية.

أما هذه الجزيرة فتبلغ ثلاثة أميال طولًا، ولا تزيد بحال عن ثلاثة أرباع الميل في العرض، ويفصلها عن اليابسة من أرض القارة، مجرى من الماء لا يكاد يبين بما يزدحم فيه من النبات البري، وقرب الطرف الغربي للجزيرة حيث يقوم حصن مولترى وحيث توجد بيوت حقيرة يأوي إليها الناس صيفًا هربًا من غبار شارلستون ينمو كثير من النبات الغريب، ولكن الجزيرة بأكملها فيما عدا هذا الطرف الغربي تُغطيها الشُجيرات الكثيفة وكان لجراند قد بنى لنفسه كوخًا في وسط غابة لا تبعد كثيرًا عن الطرف الشرقي للجزيرة، وكان يسكن في كوخه عندما ذهبت لزيارته لأول مرة، وكان رجلًا لطيفًا أُوتى من العلم حظًا كبيرًا، ولكنه كان يُفضل العُزلة، وكان يقتني كثيرًا

من الكتب وإن كان لا يكاد يقرأ منها شيئًا.

أما عن هواياته ووسائل لهوه المُفضلة فكانت الصيد برًا وبحرًا أو جمع الأصواف والحشرات.

وكان يصحبه في نزهاته عادة زنجي عجوز يُدعى جوبيتر الذي كان له خادمًا مُخلصًا اعتاد أن يتبعه كظله.

وجزيرة سوليفان لا تكون عادةً شديدة البرد في الشتاء، ومن النادر عند سقوط المطر أن يطلب الناس دفئًا حول النار.

وقد تصادف إن كُنت مُقيمًا في شارلستون في شهر أكتوبر، وكان ذلك اليوم بالذات قارس البرودة ففكرت أن أزور صديقي الذي لم أكن رأيته لفترة ما، ولما وصلت إلى الكوخ طرقت الباب فلم أسمع مُجيبًا، وكنت أعرف مخبأ المفتاح فتناولته وفتحت الباب.

ووجدت بالداخل نارًا جلست استمتع بدفئها، وانتظر صديقي لجراند وخادمه، وما أن انتشر الظلام حتى عادا وقابلاني بترحاب حار وانفرجت شفتا جوبيتر عن ابتسامة عريضة وأسرع يعد دجاجة برية للعشاء، بينما جالسني لجراند بجانب المدفأة، وأخذنا في حديث بهيج.

كان قد وجد احدة من الأصداف غير معروفة النوع، وعلاوة على ذلك اصطاد بمعونة جوبيتر حشرة غريبة اعتقد أن نوعها إلى الآن لم يُكتشف.

وطلب إلى أن أبدي رأيي فيها في اليوم التالي.

قلت له وأنا أفرك يدي أمام النار وأستنزل لعنات الجحيم على كل.

ولماذا لا أراه الليلة؟

فأجاب لجراند: آه لو كنت أعلم أنك هُنا، ولكن من أين لي ذلك؟ لقد التقيت بالضابط جـ من ضباط القلعة وأنا في طريق عودتي وبكل بلاهة أعرته الخُنفساء، ولذا لن يُمكنك رؤيته قبل الصباح، اقض ليلتك هُنا وأنا أرسل جوبيتر غدًا عند الشروق... حقًّا إنه لجميل جدًا.

- ماذا؟ أتقصد الشروق؟

- لا، لا، أعني الخنفساء إن لها لونًا ذهبيًا لامعًا، وهي في حجم البُندقة الضخمة وعلى طرف ظهرها نقطتان سوداوان وفي الطرف الآخر نقش طويل من نفس اللون.

وقال الخادم الزنجي: إنني أُكرر لك القول يا سيدي وليام، إن الحشرة ذهبية من الظاهر والباطن ما عدا جناحيها، وأشهد أني لم أر في حياتي حشرة تشبهها في الثقل أو حتى تعدل نصف وزنها.

وقال المستر لجراند مُؤنبًا: وإذا كانت الحشرة ثقيلة كما تقول فهل هذا سبب لكي تترك الدجاجة تحترق؟

ثم التفت إليّ وقال: إن الحشرة تبدو حقًّا كأنها من الذهب، وسوف تراها بعينيك غدًا، غير أنني سأعطيك فكرة عن شكلها الآن.

قال ذلك وجلس إلى مائدة صغيرة، وبعد أن بحث عن قطعة من الورق أخرج من جيبه قطعة من الورق المُتسخ ورسم عليها شكلًا تقريبيًا بقلمه،

وبعد أن انتهى أعطاني الورقة في مقعدي بجانب النار.

وبينما كُنت أتناولها منه سمعت نباح كلب في الخارج، وفتح جوبتر الباب واندفع إلى الحجرة كلب ضخم يملكه لجراند.

وتذكرني في الحال لأنني كنت أُلاطفه في زياراتي السابقة، وبعد أن لاعبت الكلب بُرهة نظرت إلى الورقة واستولت عليّ الدهشة لما كان مرسومًا بها.

قلت له: لا بُد أن تكون الحشرة عجيبة لأني لا أعرف نوعها ولم أر من قبل شيئًا يشبهها إلا إذا كان ذلك الشيء جمجمة ميت.

قال لجراند: جمجمة ميت! نعم لقد فهمت ما تقصد، فالنقطتان السواداوان تشبهان العينين والخط المستطيل عند الطرف الأسفل يشبه الفم وعلى ذلك فالشكل العام يشبه الجمجمة.

قلت له: أنت لا تجيد الرسم يا لجراند ولا بُد لي من الانتظار لأرى الحشرة بنفسها.

قال لي وقد بدا عليه الغضب: لا أدري ماذا أقول لك، ولكني تعلمت الرسم على أيدي أساتذة عِظام، وعلى كل حال فلست غبيًا إلى هذه الدرجة.

- ولكن الذي رسمته هُنا يا عزيزي يشبه الجمجمة إلى حد كبير ولا أعرف نوعًا من الخنافس يشبهه.

وقال لجراند وهو غاضب: إن هذا الرسم لا يشبه الجمجمة إطلاقًا.

قلت له: حسنًا، حسنًا، ربما كان كما تقول، وكنت مُندهشًا من صديقي لأن الرسم برغم ذلك كان يشبه إلى حد بعيد الجمجمة.

وتناول مني الورقة وكان على وشك أن يُمزقها ويلقي بها في النار عندما استرعى التفاته شيء بدا له في الرسم أثر نظرة بالمصادفة للورقة.

ومضى ينظر للرسم باهتمام بالغ ثم نهض من مقعده وتناول مصباحًا من على المنضدة وذهب بعيدًا إلى طرف من الحجرة حيث جلس على صندوق هُناك.

وهُناك بدأ يفحص الورقة بعناية ويقلبها على كل وجه، كل ذلك وهو لا ينطق بشيء، ورغم ما أدهشني سلوكه لم أسأله تفسيرًا، ومضى وقت قبل أن يطوي الورقة باحتراس ويضعها في درج من مكتبته.

وحاولت أكثر من مرة أن أُفاتحه في الحديث معي ولكنه كان يبدو مُستغرقًا في التفكير فلم يلق بالا إليّ، وكنت قد قررت قضاء الليل في الكوخ ولكن صمته البالغ لم يكن مُشجعًا فودعته ورحلت.

وبعد شهر أو بعض شهر (ولم أكن قد رأيت لجراند خلاله) جاء الخادم الزنجي جوبيتر يزورني، وكانت تبدو عليه أمارات الجد والاهتمام، فظننت أن سوءًا ألم بسيده.

قلت له: حسنًا يا جوبيتر، ماذا حدث؟ وكيف حال سيدك؟

قال: إذا أردت الحقيقة يا سيدي فإنه ليس في خير حال.

- إنني آسف لهذا ولكن ماذا حدث له؟

- إنه لا يقول شيئًا ومع ذلك فهو في أشد حالات المرض.

- مريض جدًا يا جوبيتر؟ ولماذا لم تقل ذلك من البداية، هل هو طريح الفراش؟

- لا، ولكنه في حال أسوأ مما لو كان مريضًا.

وقلت له وقد بدأت أنزعج من أجل صديقي: ماذا تقصد يا جوبيتر؟

فأجاب الخادم: إن سيدي لا ينطق بكلمة البتة، إنه يجلس مُفكرًا طوال اليوم ولا أعرف عم يبحث ولا فيم يُفكر، ولقد غاب عن البيت يومًا بأكمله حتى أنني كدت أن أضربه بعصا أحتفظ بها عندي لولا أن قلبي لم يُطاوعني لما بدا عليه من الشحوب الشديد.

قلت: إياك أن تصيبه بسوء يا جوبيتر، ولكن ماذا حدث مُنذ كنت في بيتكم؟

- لقد بدأت الحوادث في نفس الليلة.

- كيف، كيف كان ذلك؟

- الحشرة الذهبية، إنني على يقين أنها قد لدغته في مكان ما من رأسه، فقد كان هو الذي صادها أولًا، أما أنا لم يعجبني منظرها وقد أمسكت بها من بعده ولففتها في ورقة وجدتها في الغابة.

- وهل تظن أن الحشرة قد لدغت سيدك وأن هذا هو سبب مرضه؟

- أنا مُتأكد من ذلك وإلا لِما نام يحلم بالذهب.

- ربما كُنت على حق يا جوبيتر، وهل كلفك المستر لجراند أن تقول لي شيئًا؟

- كلا، ولكني أحمل لك رسالة منه، وأعطاني جوبيتر ورقة قرأت فيها:

«عزيزي...

لماذا انقطعت عن زيارتي كل هذا الوقت مُنذ التقيتك؟ لم أكن في صحة طيبة لفترة أيام وإن لدي موضوعًا أود أن أفضي إليك به إذا استطعت فتعال مع جوبيتر، بالله تعال لأني أُريدك الليلة لمسألة هامة».

المُخلص

وليام لجراند

وكان بهذه الرسالة شيء ما أثار في نفسي شعور القلق، ولذلك أعددت نفسي لأصحب الخادم دون تأخير.

ولما وصلت إلى المرسى رأيت في القارب الذي سنعبر به القناة، رأيت منجلًا وثلاثة فئوس كلها جديدة ومُلقاة في قاع القارب.

سألت الخادم: ما كل هذا يا جوبتر؟

فأجابني: لقد كلفني سيدي وليام بشرائها من البلدة، وقد دفعت فيها مبلغًا كبيرًا.

- ولكن ماذا سيصنع سيدك بالمنجل أو المعول؟

- هذا ما لا علم لي به، ولكن كل هذا بسبب ....

ولما لم أحصل على جواب شاف من جوبيتر نزلت إلى القارب وعبرنا سريعًا إلى الجزيرة، وسرنا قرابة الميلين حتى وصلنا إلى الكوخ حوالي الثالثة بعد الظهر، وكان لجراند في انتظارنا وسلم عليّ وهو يشد على يدي بشوق وكان شاحب الوجه غريب المظهر، وبعد أن سألته عن صحته لم أدر ما أقول فسألته إذا كان أحضر الحشرة من الضابط ج.

فقال مُجيبًا: آه، نعم لقد جئت بها في اليوم التالي، ألا تعلم أن جوبيتر مُحق فيما يقول عنها.

مُحق في أي شيء؟

فقال وعن مظاهر الجد: في ظنه أنها من الذهب الخالص، إن هذه الحشرة ستكون سببًا في ثروتي.

جوبيتر – أحضر الخنفساء.

قال الخادم خائفًا: ماذا؟ الخنفساء يا سيدي! لا، لا.. اذهب أنت فأت بها بنفسك.

وقام لجراند وجاءني بالحشرة من صندوق زجاجي كان يحفظها فيه، كانت حشرة جميلة، وكان في إحدى طرفي ظهرها نقطتان سوداوان مُستديرتان، وخط مستطيل في الطرف الآخر، وكانت القشور التي تُغطي جسمها صلبة ولامعة كالذهب البراق، وكان ذلك بالإضافة إلى ثقل وزنها وهو ما دعا جوبيتر لأن يظنها من الذهب الخالص، غير أني لم أفهم لماذا كان لجراند هو الآخر يعتقد نفس الاعتقاد.

قال لي صديقي بعد أن فحصت الخنفساء:

أرسلت إليك لآخذ رأيك في هذه الحشرة، وفي الثروة التي ستؤول إليّ عن طريقها.

وقلت مُقاطعًا: يا عزيزي لجراند لا شك أنك لست في صحة جيدة ويجب أن تلزم فراشك، من المُمكن أن تكون مريضًا جدًا بدون ارتفاع في درجة الحرارة، اذهب إلى الفراش أولًا وثانيًا.

وهُنا قاطعني هو قائلًا: أنت على خطأ، إنني في الحالة التي أتوقع أن أكونها في هذه الظروف المُثيرة، فإن أردت تحسن صحتي حقًا قدم لي ما أطلب من مُساعدة.

- وكيف أستطيع ذلك؟
- الأمر في غاية السهولة، أنا وجوبيتر ذاهبان في مهمة بين التلال ونحتاج إلى معونة وأنت الشخص الوحيد الذي نثق فيه.
- من كل قلبي أُقدم لك ما ترجو من عون، ولكن هل هُناك علاقة ما بين تلك الحشرة والرحلة؟ إذا كان الأمر كذلك فإني أرفض أن أشترك معكم في أمر كهذا.
- إذن يُؤسفني – يُؤسفني جدًا –، ولا بُد من أن نُحاول ذلك بأنفسنا دون عون.

قلت لنفسي – تُحاولان بأنفسكما؟ – هذا الرجل قد جُن ولا شك.

وصحت: انتظر، كم من الزمن يستغرق هذا العمل؟

أجاب: ربما طوال الليل، سنرحل الآن وعلى أية حال سنعود مع الشروق.

قلت له: هل تعد بعد أن تنتهي مسألة هذه الحشرة أن تعود إلى المنزل وتفعل ما أُشير به عليك كما لو كنت طبيبك؟

أجاب: أجل، أعدك بذلك، والآن هيا بنا.

وذهبت مع صديقي بقلب أثقله الحُزن وبدأنا الرحلة قرابة الساعة الرابعة، لجراند وجوبيتر والكلب وأخيرًا أنا.

وكان جوبيتر يحمل المنجل والمعاول بنفسه، كأنما خشي أن تمتد يد سيده إلى أحدها، وعهد إليّ أنا بالمصباحين وحمل لجراند الحشرة، وكان قد ربطها بخيط وأخذ يهزها في يده هُنا وهُناك أثناء سيره، وبدا عليه أنه زاهد في الكلام ولم تكن إجاباته عن كل ما وُجهت له من أسئلة إلا: سوف نرى.

وعبرنا القناة في قارب واتجهنا إلى الشمال الغربي في منطقة جبلية قفر، وسار لجراند في المقدمة وكان يقف بين حين وآخر ليبحث عن علامات كان قد ثبتها هو من قبل، وسرنا حوالي ساعتين، وعند مغيب الشمس مُباشرة وصلنا إلى أرض مُرتفعة مُوحشة تكسوها النباتات البرية وعلى أديمها كانت الحجارة الضخمة منثورة هُنا وهُناك بلا نظام.

ولم يكن من المُستطاع أن نصل إلى الأرض المُسطحة التي تسلقنا إليها دون أن نستعمل المنجل.

وكان لجراند يوجه جوبيتر كي يشق لنا الطريق حتى وصلنا إلى قاعدة شجرة شاهقة الارتفاع، كانت أكبر بكثير وأجمل من ثمان أو عشر شجرات أُخر كانت تحيط بها.

وسأل لجراند خادمه بعد أن وصلنا إلى الشجرة إذا كان يستطيع تسلقها، واندهش الزنجي نوعًا ما ودار ببطء حول الشجرة يفحص ساقيها، ثم قال في النهاية:

نعم يا سيدي، جوبيتر يستطيع أن يتسلق أي شجرة يقع عليها بصره.

قال لجراند: إذن اصعد الجذع الرئيسي أولًا وسأُوجهك بعد ذلك، انتظر.. خذ هذه الحشرة معك.

- الحشرة يا سيدي! لا، لا أُريد أن أخذ الحشرة معي فوق الشجرة.

- إذا لم تأخذها معك فلا بُد من أن أُحطم رأسك بهذا المعول، هيا اذهب.

وأخذ جوبيتر الحشرة وهو يمسك بها من طرف الخيط ويبعدها عن جسمه قد استطاعته وبدأ يتسلق الشجرة، ومع أن ساق الشجرة كان لمسافة ستين أو سبعين قدمًا خلوا من الفروع، إلا أنه كان خشنًا غير مُستوي السطح، واستطاع جوبيتر أن يتشبث إلى الجذع بيديه وركبتيه حتى وصل أخيرًا إلى أول فروعها الضخام.

وما زال الزنجي يتسلق عاليًا حتى لم يعد يرى من خلال الأوراق الكثيفة، وما لبث أن صاح مُناديًا: يا سيدي، إنني أرى السماء من قمة الشجرة.

- لا تُبالي بالسماء، وإنما انظر أسفل منك وقل لي كم فرعًا تركت من تحتك؟

- واحد – اثنين – ثلاثة – أربعة – خمسة، لقد مررت بخمسة أفرع.

- إذن تسلق حتى الفرع السادس وتسلل عليه مُستعرضًا إلى أقصى مسافة تستطيع، وإن رأيت شيئًا يستوقف النظر فأخبرني بما ترى.

وإلى هذه اللحظة أدركت أن صديقي قد جُن، وكنت أتساءل في حيرة عن أحسن وسيلة لإرجاعه إلى المنزل، وهُنا صاح جوبيتر يقول إن الفرع ميت ويخشى أن يزحف عليه.

قال لجراند: وماذا أصنع الآن؟ وكان بادي الحيرة والاضطراب.

قلت له: تصنع؟ تعود إلى البيت وتلزم الفراش.

«حقًا إنك غريب الأطوال، وقد تقدم الليل فلا تنس ما وعدت به. ولم يعرني التفاتًا، وإنما صاح بخادمه اختبر الخشب بمديتك فإن رأيت أنه متين فازحف عليه، إن فعلت ذلك وأخذت معك الخنفساء سأعطيك دولارًا من الفضة هدية لك بمجرد أن تهبط من الشجرة».

وصاح جوبتر: هأنذا يا سيدي قد قاربت نهاية الفرع الآن، أوه! رحمتك يا ربي ما هذا الذي أراه على نهاية النوع أمامي؟

وقال لجراند وهو في غاية الانشراح والسرور: ماذا ترى؟

- لا شيء إلا جمجمة، لقد صعد إلى هُنا رجل ولاقى حتفه.

- اسمع يا جوبيتر، افعل ما أقول لك تمامًا، اكتشف العين اليُسرى

من الجمجمة، هل تعرف يدك اليُمنى من اليُسرى؟

- نعم يا سيدي، إنني أقطع الخشب بيدي اليُسرى.

- بالتأكيد، فأنت أعسر، والآن أظنك تستطيع اكتشاف العين اليُسرى للجمجمة هل وجدتها، حسنًا ادخل الخُنفساء من العين واتركها تتدلى إلى أقصى طول في الخيط ولكن احترس وحاذر أن يفلت الخيط من يدك.

وأثناء هذا الحديث لم نكن نرى من أثر لجوبيتر ولكن الخنفساء ما لبثت أن بانت للعيان مُدلاة من طرف الخيط تلمع كالذهب وعليها أشعة الغروب، وحمل لجراند المنجل وأزال النباتات من مساحة تبلغ قطرها ثلاثة أو أربعة من الياردات تحت الحشرة مُباشرة، وبعد ذلك طلب من جوبتر أن يفلت الخيط ويهبط الشجرة.

وأخذ صديقي وتدًا دقه في الأرض حيث سقطت الحشرة مُباشرة، ثم أخذ شريط للقياس وثبت طرفه في جذع الشجرة عند أقرب نقطة للوتد، وبسط الشريط إلى الوتد ثم بسطه أبعد من ذلك في نفس الاتجاه لمسافة خمسين قدمًا حيث دق وتدًا ثانيًا ورسم حوله دائرة قطرها أربعة أقدام، وتناول لجراند أحد المعاول وأعطى الثاني لجوبيتر والثالث لي ودعانا لأن نُساعده في الحفر بأسرع ما يُمكن، وكان التعب قد أخذ مني بعد ذلك المشي الطويل، وكان الليل يتقدم ومع ذلك فقد خشيت أن أغضب صاحبي إذا رفضت المُساعدة.

وبعد أن أضيء المصباحان بدأنا نحفر الأرض بهمة ونشاط ولمدة

ساعتين دون انقطاع، ولم ينبث أحد بكلمة ولكن الكلب الذي بدا عليه السرور فيما كنا نفعل شرع ينبح نباحًا عاليًا، حتى أن جوبيتر لم يجد بُدًا في النهاية من كم فيه.

وكنا قد حفرنا إلى عُمق يقرب من خمسة أقدام دون أن نرى أثر للكنز الذي كان لجراند يتوقع اكتشافه، وحفرنا لمسافة قدمين آخرين ولم يظن لنا شيء.

وأخيرًا خرج لجراند من الحفرة ولبس سُترته وجمع جوبيتر أدوات الحفر وفك كمامة الكلب وعدنا أدراجنا والصمت يخيم علينا.

ولم نكد نخطو عشرات الخُطى في طريق عودتنا حتى أمسك لجراند بخادمه من ياقته وصاح فيه: أيها الوجد، أجب حالًا، أين عينك اليُسرى؟

- آه يا سيدي، أليست هذه عيني اليُسرى؟ قال جوبتر ذلك والخوف يملأ نفسه، بينما أشار إلى عينه اليُمنى.

وصاح لجراند في سرور: هذا ما ظننت، لنعد، وسار أمامنا إلى الشجرة.

وقال لجراند وهو يلمس كلتا عيني جوبيتر: والآن هل كانت هذه العين أو تلك التي أسقطت منها الخُنفساء؟

قال جوبتر: إنها هذه العين يا سيدي، وأشار إلى عينه اليُمنى.

- إذن فلا بُد من مُحاولة ثانية، ورفع الوتد الذي حدد مسقط الخنفساء ودقه في نقطة تبعد عن الأولى ثلاث بوصات إلى ناحية

الغرب وتناول شريط القياس وثبته في أقرب نقطة من الشجرة وجعل يقيس كما فعل أول مرة مسافة خمسين قدما فوصل إلى مكان يبعد كثيرًا من الياردات عن المكان الذي أجرينا فيه الحفر.

ورسم دائرة واسعة حول النقطة الجديدة وبدأنا نحفر بالمعاول، كنت أشعر بالتعب إلى حد لا يُطاق ولكني بدأت أُولي المسألة اهتمامًا، بل لقد أحسست باضطراب ولهفة في مشاعري.

وبعد عمل دام ساعة ونصف ساعة انبعث من الكلب عواء شديد، وعندما حاول جوبتر للمرة الثانية أن يكم فاه قاومه بوحشية وقفز إلى الحفرة ينبش التراب بأظافره كأنما أصابه مس من الجنون، وبعد ثوان معدودة كان قد كشف عظامًا آدمية وسكينًا اسبانيا طويلًا، ولما عاودنا الحفر ظهر لنا على أضواء المصباحين ثلاث أو أربع قطع من العملة الذهبية والفضية، وعندئذ بلغ اضطراب جوبيتر حدًا كبيرًا.

وأما لجراند فقد بدا عليه أنه أُصيب بالخيبة والفشل، وبرغم ذلك طلب إلينا أن نُواصل الحفر، وبينما كان يقول ذلك تعثرت قدمي في حلقة حديدية كانت مطمورة إلى مُنتصفها في التراب.

وبعد عشرة دقائق كُنا قد أخرجنا من الركام صندوقًا خشبيًا مُستطيلًا، وكان من المُحال أن نستطيع نقله، ولكننا لحُسن الحظ استطعنا أن نزيح المزلاجين لنرفع الغطاء، وعلى ضوء المصباحين ومض إلى أعلى بريق خاطف للبصر ووهج مُتألق من أكوام الذهب واللآلئ فذهلت لها أبصارنا للغاية.

وقد نالت منا الدهشة جميعًا، ولاح عليّ لجراند أنه قد سئم هذه العواطف الثائرة ووقف جوبتر كالمذهول، وبعد قليل هوى على ركبتيه في الحفرة ودفع بيديه وسط الذهب كما لو كان يغتسل في حوض ماء، وكانت الساعات تتعاقب والليل يتقدم وكان علينا أن ننقل كل شيء إلى البيت قبل إشراق النهار.

فخففنا حمولة الصندوق بأن نقلنا ثُلثي مُحتوياته إلى جدار الشجرة وتركنا الكلب يحرسها، وحملنا الصندوق بسهولة وانطلقنا إلى البيت فبلغنا الكوخ آمنين بعد مجهود شاق في الساعة الواحدة صباحًا، وكنا مُتعبين للغاية فأخذنا بعض الراحة حتى الساعة الثانية وتناولنا العشاء وانطلقنا إلى الجبل بعد ذلك مُباشرة.

ووصلنا إلى الحُفرة قبل الرابعة بقليل وقسمنا باقي الكنز بيننا نحن الثلاثة بأن عبأناه في ثلاث زكائب متينة أحضرناها لهذا الغرض.

وعُدنا إلى الكوخ للمرة الثانية وتباشير أنوار الفجر تشرق على أعالي الدوح من ناحية المشرق.

وبعد ثلاث أو أربع ساعات من النوم الذي لم نحظ فيه بما نرجو من راحة استيقظنا وبدأنا نفحص الكنز الذي كان مُكدسًا دون نظام.

ولما أن صنفناه وجدنا قيمته أعلى بكثير مما قدرنا أول الأمر، فمن قطع العملة كان هُناك أكثر من أربعمائة وخمسون ألف دولار، كلتها من النقود الذهبية القديمة.

وكانت أكثر النقود فرنسية وألمانية واسبانية مع قليل من العملة الإنجليزية وعُملات أُخرى كبيرة الحجم وثقيلة لم نتثبت منها.

وكانت هناك مجموعة منوعة من الجواهر والحُلي والأطباق الذهبية ومقايض السيوف وسبع وتسعون ساعة رائعة ذات قيمة أثرية وكلها مُرصعة بالجواهر، وفي تلك الليلة قدرنا قيمة الكنز بمليون ونصف من الدولار، ولكننا علمنا فيما بعد أنه يُساوي أكثر من ذلك بكثير.

ولما رأى لجراند أنني في غاية الشوق لأن أعرف كيف اكتشف موقع الكنز جعل يقص عليّ ما حدث.

قال لي: لعلك تذكر تلك الليلة عندما رسمت لك شكلًا تقريبيًا للخُنفساء وعرضته عليك، وقد غضبت منك عندما قلت لي أنني لا أجيد الرسم، ولذا عندما أرجعت لي قطعة الرق كنت على وشك أن ألقي بها طعمة للثيران.

قلت له: تقصد قطعة الورق؟

قال: كلا.. كنت أظنها ورقة أول الأمر، ولكني عندما بدأت أرسم عليها اكتشفت أنها قطعة من الرق، وكانت مُتسخة للغاية كما تذكر، هكذا كنت على وشك أن أُمزقها قطعًا عندما رأيت الرسم الذي كنت تنظر إليه، وكم كانت دهشتي عندما رأيت صورة جمجمة الميت في نفس المكان الذي خُيل إليّ أنني رسمت فيه الخُنفساء، وكنت مُتأكدًا أنه لم يكن بالرق أي رسم من قبل، لأني على ما أتذكر قلبتها ظهرًا لوجه بحثًا عن الوجه الأكثر نظافة، فلو كان رسم الجمجمة موجودًا لِما صَعُبَ عليّ مُلاحظته.

وبعد أن انصرفت واستغرق جوبتر في النوم، جلست أتدبر كيف حدث ذلك، كُنا قد وجدنا الخنفساء على ساحل القارة على بُعد نحو ميل شرقي الجزيرة وعلى مسافة قصيرة إلى أعلى من العلامة التي تدل على موضع المياه العميقة.

وعندما أمسكت بالحشرة لدغتني لدغة حادة فألقيت بها فطارت مُتجهة نحو جوبتر الذي كان ينظر حوله باحثًا عن ورقة من الشجر أو شيء من هذا القبيل ليمسك بها الحشرة، وفي ذات الوقت لاحظنا طرفًا بارزًا من شيء حسبته قطعة من الورق، كان بارزًا من تحت الرمال قُرب حطام سفينة قديمة.

والتقط جوبتر قطعة الرق ولف فيها الخُنفساء وأعطاها لي، وفي طريقي إلى البيت قابلت الضابط ج وأطلعته على الحشرة فرجاني أن أسمح له بأخذها إلى الحصن، فلما وافقت وضعها في جيبه وترك لي الرق فطويته ووضعته في جيبي دون أن أدري ما أنا فاعل.

قلت لك أن الرقعة كانت من الرق الذي يُستعمل للتسجيل والذي يعيش على مر الأيام.

قلت له: ولكنك قلت أن رسم الجمجمة لم يكن على وجه الرق عندما رسمت أنت شكلًا للخنفساء، ما علاقة حطام السفينة برسم الجمجمة؟ وكيف ظهر الرسم على الرق؟

- آه، إن هذا هو محور القصة بأكملها، ولكنني في تلك الأثناء لم أُصادف صعوبة تذكر في اكتشاف سر المشكلة، تذكر أن الطقس

كان باردًا في تلك الليلة وأن النار كانت مُضطرمة وكنت أنت جالسًا إلى جوار المدفأة ولما دخل الكلب إلى الحجرة وجاء يُلاعبك سقطت رقعة الرق على ركبتيك قريبًا من النار، ولم تنظر أنت إلى الرق إلا بعد لحظات فلا شك أن النار هي التي أظهرت رسم الجمجمة على الرق، فهُناك أنواع من الحبر تظهر ببطء إذا تأثرت بالسخونة.

وقد عرضت قطعة الرق للنار بعد رحيلك فاكتشفت رسمًا آخر لحيوان ظننته أولًا عنزة فاتضح لي أنه جدي (Kidd).

قلت له ضاحكًا: وما علاقة القراصنة بصورة الجدي؟ لم أسمع أن القراصنة اهتموا يومًا ما بالزراعة.

قال صاحبي: ربما تكون قد سمعت عن الكابتن «كيد» «Kidd» القرصان الشهير، وقد ارتبطت في التو صورة الجدي «Kid» باسم هذا القرصان لأني كنت أعلم ما قيل عنه أنه قد خبأ كنزًا في مكان ما على ساحل الأطلنطي، وأنت قد سمعت قصصًا كثيرة عن الباحثين عن الكنوز لا عن الذين يكتشفون الكنوز، هل سمعت قط عن أي كنز اكتُشِفَ هُنا على هذا الشاطئ؟

- أبدًا.

ولكن من المعلوم أن الكابتن «كيد» كان يملك كنوزًا ضخمة، ولذا تأكد لي أنها لم تُكتشف بعد.

- وماذا فعلت بعد ذلك؟

- لما كانت قطعة الرق مُتسخة فقد نظفتها بالماء الساخن، وبعد ذلك أعدت تعريضها للنار وسررت كثيرًا عندما بدأت تظهر تحت الرسمين كتابة بالشفرة.

وهُنا جاء لجراند بقطعة الرق وسخنها وناولها لي، ورأيت عليها بعض العلامات والأرقام مكتوبة بالأحمر دون عناية.

قلت له وأنا أعيد الرقعة: ولكن لو كنت مكانك لما استطعت أن أحل هذه الشفرة لأحصل على كنوز الدنيا بأسرها.

- مما يُعرف عن الكابتن «كيد» ظننت أنه لا يستطيع أن يبتكر لغزًا أعجز أنا عن حله.

- وهل توصلت حقيقة إلى كشف سره؟

- بسهولة، لقد حللت غيره أصعب منه لآلاف المرات، ولما أن استقر رأيي على أن لغة الشفرة لا بُد أن تكون الإنجليزية لأن اسم «كيد» Kidd واسم الحيوان The Kid مُستعملان كلاهما في الإنجليزية وجدت أنه من السهولة بمكان التوصل إلى معنى هذه الإشارات والأرقام، وألقيت نظرة على فرأيت ما يلي مكتوبًا:

53‡‡‡3o5))6*;4826)4‡.)4‡);8o6*;48‡8¶6o))85;‡‡(;:‡*8‡83(88)5*‡;

46(;88*96*?;8)*‡(;485);5*‡2:*‡(;4956*2(5*4)8¶8*;4069285);)6‡8)4
‡‡;I(‡9;4808I;8:8‡I;48‡85;4)485‡528806*8I(‡9;48;8(88;4(‡?34;48)
4‡;I6I;:I88;‡?;

واستطرد لجراند يقول: ها أنت تُلاحظ أنه لا توجد فواصل بين الكلمات، فلو كانت هُناك فواصل لكان الحل سهلًا إلى حد كبير. عندئذ كُنت أستطيع

أن أُقارن بين الكلمات القصيرة وأحللها. وكان من المُمكن أيضًا أن أبحث عن كلمة من حرف واحد مثل أنا (I) وهُنا كُنت أتوصل إلى الحل بكل سرعة.

ولكن لما لم أجد تلك الفواصل كان أول خطواتي أن بحثت عن الحروف المُستعملة أكثر من غيرها، وكذلك الحروف المُستعملة أقل من غيرها وجمعتها كلها على الترتيب التالي:

الحرف أو الرمز	عدد مرات وروده بالشفرة
8	33
;	26
4	19
⇟)، ⇟	16
*	13
5	12
6	11
(	10
⇞	8
O	6
9	5
:	4
?	3
⇞	2
Qt	1

وفي اللغة الإنجليزية نجد الحرف E أكثر الحروف استعمالًا، ويغلب وروده لدرجة أن أي جُملة مهما كان طولها لا بُد أن يكون حرف E فيها هو الغالب، وعلى ذلك كان أمامي من البداية شيئًا اعتمد عليه أكثر من مُجرد الحدس والتخمين.

وبما أن الرقم 8 هو أكثر الأرقام ورودًا، فلنفرض أنه يُمثل حرف E، ولكي نُؤكد هذا الفرض لنرى إذا كان رقم 8 يأتي مزدوجًا في الشفرة لأننا نعرف أن الحرف E يتكرر كثيرًا في كلمة واحدة مثل: FLEET, SPEED, MEET وهكذا، ونجد أن الحرف يتكرر مُزدوجًا في الشفرة خمس مرات على رغم قلة عدد الكلمات.

فرضًا إذن أن رقم 8 هو حرف E، وبما أن كلمة THE هي أغلب الكلمات استعمالًا فلننظر إذن إذا كان هُناك ثلاثة حروف تتكرر بترتيب واحد وآخر هذه الحروف هو الرقم 3.

فإذا وجدنا شيئًا من هذا القبيل فمن المُحتمل جدًا أن تلك الرموز تقوم بدلًا من كلمة THE وبالبحث نجد رموزًا بالترتيب المذكور لا تقل عن السبعة عدًا. وهي (43;) وعلى ذلك نقول أن الرموز (;) = T والرمز (4) = E والرمز (8) = E. وهكذا تأكد الفرض الأول أن رمز 8 = E وقطعنا مرحلة كبيرة نحو الحل.

وباكتشاف هذه الكلمة الوحيدة THE يُمكننا أن نتوصل إلى شيء هام هو بدايات الكلمات ونهاياتها، فعندما نجد الرموز (48;) في مكان ما يُمكن بسهولة أن نفصلها عن الكلمة السابقة لها والكلمة التابعة لها، ثم

لاحظت مجموعة من الرموز يجتمع فيها الحرف E مرتين والحرف T مرة واحدة هي التي تقوم مقام 88);.

ولو جربنا الحروف الأبجدية لنملأ هذا الحرف لوجدنا أن حرف R هو الأنسب، وهكذا يكون الرمز) = R.

ومن بعد كلمة THREE التي عرفناها نجد مجموعة من الرموز [34?)4;) فإذا استقبلنا الرموز المعروفة بالحروف التي تُقابلها تكون الكلمة كما يلي THR....H]

فإذا تذكرنا كلمة TAROUGH يكون الرموز ‡ هو GO؟ هو U، 3 هو G فإذا فحصنا الشفرة بدقة بحثًا عن مجموعات من الحروف التي عرفناها نجد المجموعة [88) 83‡ غير بعيد من بداية الشفرة وبنفس الطريقة يُمكن استبدال الرموز بالحروف المُقابلة لها فتكون الكلمة كما يلي:

‡83 (88
- EGREE

وهذه تُذكرنا بكلمة DEGREE، وكذلك نجد مجموعة من الرموز هي [‡88;)46 ذ] وباستبدالها بالحروف تصبح -TH-RTEE وفي الحال نذكر كلمة Thirteen ويكون الرمز 6 هو I والرمز * هو N.

وإذا نظرنا الآن إلى بداية الشفرة نجد المجموعة

53		‡

وترمز إلى كلمة [GOOD-] مما يُؤكد لنا أن الحرف الأول هو A

وهكذا نستطيع الآن ترتيب الرموز وما يُقابلها من حروف كما يلي:

الرمز	الحرف المُقابل له
5	A
‡	D
8	E
3	G
4	H
6	I
*	N
‡	O
‡	
(	R
;	T
?	U

وها قد أثبت لك سهولة الوصول إلى حل هذه الشفرة، وعلى ذلك ها هي ترجمة الرموز المكتوبة على الرق.

بزجاجة من نوع جيد وعند فندق بيشوب على مقعد الشيطان انظر على زاوية قدرها ٤١° درجة في اتجاه شمال شرق الشمال إلى الجذع الرئيسي للشجرة عند الفرع السابع على الناحية الشرقية، واسقط من العين اليُسرى للجمجمة ثقلًا، واتجه من موضع سقوط الثقل خمسين قدمًا بعيدًا عن الشجرة.

قلت لصديقي: ومع ذلك فهذا لا يحل المشكلة بأية حال، أي معنى تجد في كلمات مثل مقعد الشيطان، وفندق بيشوب.

وأجابني لجراند: أعترف لك أن اللغز إلى الآن يبدو مشكلة عويصة، ولكن بعد تفكير قسمت الكلمات إلى جُمل، أو ما يقرب من الجمل.

قلت له: وحتى بعد التقسيم لا أزال في ظلام من الغموض.

قال لجراند: وأنا أيضًا كُنت في ظلام غامض لفترة أيام معدودة قمت خلالها بالتحريات في الأماكن القريبة من جزيرة سوليفان عن أي بناء يحمل اسم فندق بيشوب.

وذات صباح خطر ببالي أن اسم بيشوب قد يكون له علاقة بعائلة قديمة تقيم في بيت لمدة قرون على مسافة أربعة أميال شمالي الجزيرة، وقصدت إلى هناك وسألت الزنوج المُتقدمين في السن في ذلك المكان، وأخيرًا أخبرتني إحدى النساء أنها سمعت عن مكان يُسمى قلعة بيشوب، وقالت أنها تستطيع أن تكون دليل إلى هناك ولكنها قالت أن المكان ليس قلعة وإنما صخرة عالية.

وعرضت عليها مبلغًا طيبًا مُقابل ما ستقوم به، ووافقت آخر الأمر أن تصحبني إلى المكان فوصلناه دون مشقة كبيرة.

وبعد أن رحلت بدأت أتفحص المكان فوجدته مجموعة من الصخور من بينها واحدة شديدة الارتفاع فتسلقتها للقمة، وبينما أنا في حيرتي ماذا أفعل رأيت حافة ضيقة تبعد حوالي الياردة من المكان الذي وقفت فيه.

لم يكن عرضه يزيد عن قدم واحد، كانت تشبه مقعدًا من الطراز القديم، وهُنا تيقنت أن هذا لم يكن إلا مقعد الشيطان المذكور في الرقعة.

وعلمت أن الزجاجة لم يكن يُقصد بها إلا المنظار المُقرب (تلسكوب) لأن هذه الكلمة (الزجاجة) تُستعمل غالبًا عن لسان البحارة.

وتملكني شعور مضطرب فأسرعت عائدًا إلى البيت وتناولت مِنظارًا مُقربًا وعُدت إلى الصخرة وجلست على الحافة فوجدت أنه ليس من المُستطاع الجلوس إلا في وضع واحد، وبواسطة البوصلة حدث الاتجاه شمال شرق الشمال.

وصوت التلسكوب على زاوية قريبة من ٤١° بالتخمين وحركته لأعلى ولأسفل حركة بطيئة إلى أن رأيت فتحة دائرية بين الفروع الخضراء لشجرة عالية للغالية.

وفي وسط هذه الفتحة رأيت بقعة بيضاء لم أتبينها لأول وهلة، فلما ضبطت عدسات المنظار ونظرت ثانية فإذا بها جمجمة بشرية.

وبعد هذا استقر رأيي على أن بقية الكتابة على الرقعة كانت تشير إلى مكان الجمجمة على الشجرة، وأن المطلوب هو إسقاط طلقه (أو أي ثقل آخر) من العين اليُسرى للجمجمة، وتحديد نقطة تبعد عن الشجرة مسافة خمسين قدمًا مارة بموضع سقوط الثقل، وأن هذه النقطة الثانية هي مخبأ الكنز.

وسألت صديقي: وماذا فعلت بعد أن بارحت صخرة بيشوب؟

لما أن تحققت من موقع الشجرة عُدت إلى المنزل، وبُمجرد أن هبطت من (مقعد الشيطان) اختفت الفتحة من الشجرة، ولم يكن في استطاعتي رؤيتها من أية زاوية.

وفي الصباح التالي استطعت أن أخرج دون أن يصحبني جوبيتر الذي كان يخرج معي أينما ذهبت، وقصدت إلى التلال ابحث عن الشجرة فوجدتها بعد بحث شاق.

أما بقية القصة فأنت على علم بها تمامًا كما أعرفها أنا.

قلت: أظن أنك أخطأت تحديد المكان أول مرة لأن جوبيتر أسقط الخنفساء من اليُمنى بدلًا من اليُسرى للجمجمة.

- تمامًا، لأن هذا أوجد فرقًا كبيرًا في المكان على مسافة خمسين قدما، ولولا شعوري الواثق أن هُناك كنز مدفون حقيقة في ذلك المكان لما كشفناه أبدا.
- ولكنك كُنت غريب الأطوار، وظللت تُحرك الخنفساء من طرف الخيط ونحن سائرون فكدت أعتقد أنك جُننت، ثم ما الذي جعلك تصر على إسقاط الحشرة بدلًا من الرصاصة من عين الجمجمة؟
- آه، إذا كنت تريد الحقيقة لقد أغضبني ظنك أنني مجنون، فأردت أن أُعاقبك عِقابًا صامتًا على طريقتي الخاصة، ولما قلت أنت أن الحشرة ثقيلة الوزن دعاني هذا لأن أسقطها من الشجرة.

قلت لصاحبي: وهُناك أمر يحيرني، هو سر وجود العظام في تلك الحفرة؟

فأجابني: إن علمي بهذا الأمر لا يزيد عن علمك، فمن المُحتمل أن الكابتن «كيد» – إذا كان هو الذي خبأ الكنز – قد فكر أن يتخلص من كل الذين عاونوه في إخفائه، ربما قتلهم بضربات معدودة من فأسه بينما كانوا في الحفرة، وربما تطلب الأمر صِراعًا أعنف من ذلك، من يدري!

القاص والقصة

هو الشاعر الناقد الأمريكي الذائع الصيت إدغار آلان بو الذي وُلِدَ في عام ١٨٠٩ في بوسطن بولاية ماساشوستس، وكانت أُمه إنجليزية ووالده أمريكيًا، ولقد مات والداه ولم يُناهز الثالثة عن عمره، فتبنته سيدة ثرية تُدعى آلن وأحاطته برعايتها وحبها على الرغم من أن زوجها كان يكره الصبي إدجار.

أرسل يو إلى مدرسة في إنجلترا ثم إلى أُخرى في رتشمند بولاية فرجينيا، ثم التحق بجامعة فرجينيا في عام ١٨٢٦، وبعد أن مكث بها عامًا تشاجر مع مستر آلن وهرب إلى بوسطن حيث انخرط في سلك الجيش وظل مُجندًا فيه أربعة أعوام، ثم لاحت له بوادر النجاح في الكتابة وقرض الشعر، ثم استقر به المطاف في بلتيمور ليتخذ من الكتابة مهنة، كان يو فقيرًا رقيق الحال، مُعدمًا من الأهل ولأصدقاء، ومع ذلك فقد أخذ على نفسه عهدًا وميثاقًا أن يكون كاتبًا ناجًا، وقد لاقى في حياته متاعب لا حصر لها، وكانت أسوء عيوبه وأشد متاعبه ولعه بالخمر وإفراطه فيها، الأمر الذي لم يستطع أن يُقاومه من أغوار نفسه أو يتغلب عليه.

وكان هذا العيب سببًا جوهريًا في أن جعل فرص الوظائف العديدة في الصحافة أو مصالح الحكومة تفلت من يده، ومع ذلك فقد بذل أقصى ما يُمكن من جُهد في أن يقهر هذا العيب المُسيطر عليه أثناء زواجه من فرجينيا كليم في عام ١٨٣٦، إلا أنه عاد للشراب مرة أُخرى، وضعفت همته عندما مرضت زوجته مرضًا عِضالًا لا برء منه ولا شفاء، قضى عليها في عام ١٨٤٧، بل أنه انغمس في الخمر انغماسًا لم يستطع له مُقاومة.

ثم أصبح صريع نوبات من الحمى الشديدة العنيفة، وقد كتب عن نفسه في هذا المقام قائلًا إنه قد أصابه مس من الجنون أفقده صوابه وعقله أحيانًا كثيرة، ولفظ أنفاسه الأخيرة في عام ١٩٤٩ بعد أن مرت به فترة رضخ فيها رضوخًا تامًا لإدمان الخمر في نهم شديد.

ولقد كتب على يو مثل زميله "ستيفنسون" النضال المُستمر ضد انحلال صحته، وضعف بنيته، الأمر الذي عاقهما كثيرًا عن كتابة كل ما تتوق نفساهما إلهي.

ولقد استمر يقرض الشعر فترة طويلة ثم أخذ يُؤلف القصص في عام ١٨٣٢ واحتل مركز الناقد الأدبي في عام ١٨٣٥.

وكان إنسانًا غريب الطباع، رقيق العاطفة، مُحبًا مُغرقًا في الحب لأولئك الذين يشعر بميل نحوهم، خشن الطبع كارهًا أشد ما يكون الكره لكل من يجد منه مُضايقة.

لم تكن كل أشعاره تفيض بالرقة، وتسيل بالسحر، بل كان بعضها يبعث الرعب والفزع، أما قصصه فقد كتبها باهتمام بالغ، إلا أن الجزء الأكبر منها كانت قصصًا تثير الخوف الشديد ونهايتها مملوءة بالموت الأليم العنيف.

وكانت فرنسا أول من آمن بعبقريته ثم تلتها أمريكا وسائر أقطار العالم بالتسليم بأن يو كان كاتبًا فذًا، ومؤلفًا حقًا وصدقًا.

قصة الشاب وفطائر القشدة

قصة : روبرت لويس ستيفنسون

كان الأمير فلوريزل، أمير بوهيميا مُقيمًا بلندن حيث شغفت به حُبًا جميع طبقات الناس على اختلافهم وذلك لسلوكه الذي يشيع المرح، ويفيض بالكرم الأصيل، ولقد أصبح بين الناس إنسانًا بارزًا ملحوظًا لما لمسوه فيه، وعرفوه عنه على الرغم من أنهم لم يعرفوا عنه سوى الضئيل مما كان يعمله ويظهره، وعلى الرغم من مظهره الهادئ الذي جعله يألف الحياة وينظر إليها من خلال فلسفة بسيطة أشبه بفلسفة رجل مزارع يفلح الأرض، على الرغم من هذا كله لم يكن يخلو من ميل شديد لحياة ملؤها المخاطرة، لا حياة إلا مارة ناعمة.

وكان كلما أحس بالملل، وكلما أقفر المسرح الإنجليزي من عرض المسرحيات الهزلية، أو كلما لم يسمح الطقس بممارسة رياضته التي كان مُبرزًا فيها عن سائر الناس، فإنه كان يهرع إلى دعوة صديقه الكولونيل جير الدين، قائد الفرسان في بلاط بوهيميا، ويطلب إليه أن يعمل على إعداد سهرة يقضيانها بالمدينة، وكان قائد الفرسان ضابطًا شابًا شُجاعًا ذا

مزاج ينحرف عن الشجاعة إلى النزق والطيش، الأمر الذي جعله يتلقى طلب الأمير بنفس مُفعمة بالسرور ويهرع توًا لإعداد السهرة، وكان شديد المراس، خبيرًا ألوَفًا بكل شئون الحياة، ولا غرو أن كان بارعًا في التنكر، وإخفاء شخصيته إخفاء تامًا ليس مقصورًا فقط على تنكر وجهه وطريقة مشيه، بل كان يشمل صوته وأفكاره التي تدور في رأسه حتى يصير شخصًا آخر من أية مرتبة في الحياة، وأية شخصية أو أي مواطن من أية أُمة.. وبهذه الطريقة استطاعا أن يحصلا سويًا على الإذن والسماح بأن يغشيا أية مُجتمعات غريبة عليهما.

ولم تُحاط السلطات الحكومية علمًا بهذه المغامرات، ذلك أن شجاعة الشاب الفائقة، وحضور بديهته ولوذعيته سمحت لهما أن يخوضا غمار مغامرات عديدة خطيرة في سلام وأمان، وعلى مر الأيام، ازدادًا وثوقًا بنفسيهما.

وفي إحدى أُمسيات شهر مارس انهمر المطر بغزارة فاضطرا إلى الدخول في خانة أويسترا الواقعة بميدان ليشستر أقرب مكان لهما في ذلك الوقت.

وكانت ملابس جبر الدين تظهره في شخصية صحفي مغمور، بينما تنكر الأمير بتغير شكله الظاهري وذلك بوضع ذقن مُستعارة وحاجبين شعرهما كث زائف فظهر في هيئة رجل أشعث الهيئة قد أثرت فيه حرارة الشمس، وتقلبات الجو، وكان تنكره هذا مُناسب له كل التناسب، وهو الرجل الذي نشأ في الرغد والعز، واستطاعا في تنكرهما هذا أن يجرعا كئوس الخمر في هدوء دون أن يزعجهما أحد.

وكانت الحانة تموج بالناس، ذكورًا وإناثًا ومع أن أكثر من واحد قد حاول أن يتخاطب مع واحد من المُغامرين، فإن كليهما لم يرغبا في أن يوثقا تعارفهما بأحد سواهما، فقد كان الحاضرون من طبقات أقل مقامًا من طبقتهما في لندن، ثم لاح على الأمير الملل والسأم وأخذ في التثاءب، وفجأة فتح باب الحانة في عنوة، ودلف إلى الحجرة شاب، وفي أثره حمالان.

كان كل واحد من الحمالين يحمل على يده طبقًا ضخمًا من فطائر القشدة وبعد أن كشف الحمالان الغطاء عن الطبقين، أخذ الشاب يقف لدى كل فرد في الحانة لحظة، ويلح عليه في أدب جم على أن يأخذ فطيرة من تلك الفطائر.

وكان الناس أحيانًا يقبلون ما يعرضه من الفطير وهم مغرقون في الضحك؛ بينما كان الآخرون يرفضون تناولها في حزم وثبات مقرونين بقحة.

وكان الشاب – إذا ما رفض أحد تناول الفطيرة – يأخذها بنفسه ويلتهمها، ويعقب على ذلك بمُلاحظة ممزوجة بالمرح أو ما يشبه المرح.

ووصل الشاب أخيرًا إلى الأمير فلوريزل وخاطبه وهو ينحني إلى أسفل ومُمسكًا بفطيرة في يده: سيدي.. هل تتكرم وتخلع على شخص غريب مثلي شرفًا من لدنك؟ إني لأضمن لك أن هذا الفطير من النوع الممتاز، ولقد أكلت بنفسي سبعة وعشرين فطيرة مُنذ الساعة الخامسة.

فرد عليه الأمير قائلًا: لقد تعودت ألا ألقي بالي واهتمامي بقيمة الهدية المُهداة لي بقدر اهتمامي بالروح والطريقة التي يُقدمها لي الإنسان.

فأدرف الشاب قائلًا وهو ينحني للمرة الثانية:

- إن هذه الروح يا سيدي التي أُقدم بها هديتي ما هي إلا روح السخرية.

فعقب فلوريزل سريعًا: أية سُخرية؟ ومن هو الذي تريد أن تسخر منه؟

فرد عليه الشاب: ما جئت لهذا المكان لأشرح لك فلسفتي، وإنما أقصد فقط أن أُوزع فطائري، ولو أني أخبرتك أني أعتبر نفسي وشخصي فردًا من بين هؤلاء الناس الذين أُحاول أن أسخر منهم فإني أتمنى أن أكون قد حافظت على كرامتك راجيًا مع ذلك أن تقبل فطيرة مني، أما إذا لم تقبل فإنك سوف تضطرني على أن ألتهم الفطيرة الثامنة والعشرين، وإني لأعترف لك أني قد بدأت أشعر بالتعب من أكل هذا الفطير.

فقال له الأمير: إني لأشفق عليك، وبي رغبة مُلحة في إنقاذك ولكن بشرط واحد – فإذا ما أكلت أنا وصديقي هذه الفطائر على الرغم من أن نفسينا تأنفها، فإننا نتوقع منك أن تتناول طعام العشاء معنا، على سبيل المُكافأة لك.

وران على وجه الشاب أنه يُفكر تفكيرًا مليًا في طلب الأمير، ثم قال أخيرًا: ما يزال معي كثير من الفطائر التي أرغب في توزيعها، وهذا بلا شك يحتم عليّ أن أقوم بزيارة عِدة حانات أُخرى حتى أختم مُهمتي العظيمة الشأن، وهذا يستلزم بعض الوقت أما إذا كنت جائعين.

وقاطعه الأمير بأدب: سوف نصحبك، صديقي وأنا، وذلك لأن طريقتك اللطيفة قد استهوتنا كثيرًا، ونرغب في قضاء سهرة لطيفة، وما

دامت قد استقرت إرادتنا على هذا الأمر، فأرجو أن تأذن لي أن أُؤدي دوري، وأنجز نصيبي في هذه الصفقة.

وبعد أن التهم الأمير الفطيرة قال مُخاطبًا الشاب في أدب جم نادر المثال: إن الفطيرة لذيذة الطعم.

أما الكولونيل جير الدين فقد أكل فطيرته أيضًا، وبعد أن قبل أو رفض كل من في الحانة هذه الفطائر الدسمة فإن الشاب قد اتخذ سبيله نحو الباب الخارجي مصحوبًا بالحمالين وفي أيديهم فطائر القشدة إلى حانة أُخرى مُشابهة لتلك الحانة، وكان يبدو على الحمالين اللذين يتبعان الشاب أنهما قد ألفا تلك الوظيفة الحقيرة السخيفة، وتبع الحمالين كل من الأمير وصديقه الكولونيل يتأبط كلاهما ذراع الآخر ويسيران سويًا، ولا يُفارق ثغريهما الابتسام كلما نظر بعضهما إلى بعض.

وسارت الجماعة على هذا النسق، وزارت حانتين أُخرتين حيث كان يرفض البعض هذا الكرم الغريب أو يقبله البعض الآخر، بينما كان الشاب يلتهم كل فطيرة تُرفض.

وعند مُغادرة الحانة الثالثة أحصى الشاب ما تبقى من الفطائر فوجد أن الباقي تسعة فطائر ثلاث منها في صينية، وست في الصينية الأُخرى.

ثم قال الشاب مُخاطبًا رفيقيه الجديدين:

- سادتي.. لا أُريد أن أُؤخركم عن طعام العشاء، وإني لواثق أنكما جائعين، وإني أشعر أني مدين لكما بتقدير خاص، وإني في يومي العظيم هذا، الذي أضع فيه نهاية لحياة الطيش بأداء هذا العمل

الذي لا أجد أسخف منه، فإني في الوقت نفسه أرجو أن أسلك سلوكًا حميدًا نحو كل هؤلاء الذين كان رائدهم الصبر على ما شهدوه مني.

سادتي: لا أريد أن يطول انتظاركم، ومع أن معدتي قد أصابتها التُخمة، وتلفت بما تنوء عن حمله من تلك الفطائر المحشوة بالقشدة فإني لأُغامر بحياتي، ولأبتلع ما تبقى منها.

وما كاد ينتهي من إلقاء هذه الكلمات حتى وضع الفطائر التسع الباقية في فمه، وبقضمة واحدة، وحركة واحدة من فكيه، التهم الفطير.. الواحدة تلو الأُخرى، ثم التفت نحو الحمالين وناولهما جنيهين.. وقال لهما: يجب أن أُقدم لكما الشكر، فقد كان رائدكما معي الصبر الجميل.

ثم سمح لهما بالانصراف، ووقف لحظات يتطلع إلى كيس النقود الذي أعطى منه الجنيهين لِمُساعديه، واعقب ذلك بضحكة ثم ألقى بالكيس في وسط الطريق، وأعلن عن استعداده التام لتناول طعام العشاء مع رفيقيه الجديدين.

وذهبوا إلى مطعم فرنسي صغير في حي سوهو، ذلك المطعم الذي تألق نجمه بالشهرة المُبالغ فيها فترة من الزمان، ثم عفى عليه بعد ذلك النسيان، وجلسوا في غرفة خاصة بالطابق الثاني حيث تناولوا طعام العشاء الدسم، وجرعوا ثلاثة أو أربعة أقداح من الشمبانيا وهم يتبادلون الأحاديث العادية، وكان الشاب يتحدث في ابتهاج وسرور، وكان يضحك ضحكًا عاليًا مدويًا بطريقة لا تصدر من فرد طيب النشأة، وكانت يداه

ترتعشان رعشة قوية عنيفة، وكان غير قادر على أن يتحكم في صوته، أو يُسيطر على نبراته أحيانًا، ورفعت الحلوى من على المائدة، وأشعل كل منهم سيجاره ثم خاطبه الأمير قائلًا:

- إن كلي ثقة وأمل في ألا تُؤاخذني على تطفلي، فإن ما قد رأيته منك قد ملأ قلبي سرورًا، إلا أنه قد زاد في حيرتي، وينبغي أن أخبرك أني وصديقي أهل لأن تثق بنا وتأتمننا على سرك، ولكل منا أسرار كثيرة نقصها، ونعهد بها إلى أُناس مُختلفين، وإذا فرضت أن قصتك سخيفة، فلست بحاجة لأن تشعر بالخجل منا، فإننا أسخف من رأيت في إنجلترا.

«اسمي جودول، نيوفولوس جودول، أما صديقي فهو الماجور الفريد هامر سميث، أو على الأقل هو اسمه الشهير به؛ ونحن نمضي حياتنا في البحث كلية عن المُغامرات الشاذة، فليس هُناك أمر شاذ إلا وقد شغفنا به».

فرد عليه الشاب: أحبك يا مستر جودول؛ إنك توحي إلى نفسي بثقة طبيعية، ولا يخامرني أدنى اعتراض على صديقك الماجور الذي أعتقد أنه نبيل مُتنكر.

وابتسم الكولونيل لهذا الإطراء، واستطرد الشاب في حديثه بطريقة مملوءة بالحيوية وقال: لديّ أكثر من سبب يمنعني عن أن أسرد عليكم قصتي، وعلى الرغم من ذلك فلعل هذه الأسباب هي التي تدفعني بأن أُحدثكما بقصتي، وإنه ليبدو لي على الأقل أنكما على استعداد تام لأن تسمعا قصة ملؤها السخافة، والتي لن أحرمكما من سماعها، أما اسمى فلن

أقوله على طريقتكما ومثالكم، وإنما سأحتفظ به لنفسي، وعمري لا قيمة له في قصتي، ولقد انحدرت من أصلاب أجدادي بالطريقة المألوفة، وورثت عنهم بيتًا جميلًا ما زلت أشغله، وثروة قيمتها ثلاثمائة جُنيهًا في السنة.

كما وإني أظن أن أجدادي قد أسلماني لطريقة ملؤها المرح الطائش الذي أجد لذتي الكُبرى في مُمارسته؛ وتلقيت قسطاً لا بأس به من التعليم، كما وإني أعزف الموسيقى بطريقة مُمتازة، ولكن ليس إلى الحد الذي يعينني على أن أكسب مالًا من فرقة موسيقية حقيرة، وقد تعلمت الكثير من لعب الورق حتى يُمكنني أن أخسر ما يقرب من مائة جُنيهًا سنويًا، وإلمامي باللغة الفرنسية كان كافيًا لأن يعينني على أن أصرف المال في يُسر كما أصرفه في لندن.

وبالاختصار فإن شخصي مليء بفضائل الرجولة، ولقد جربت كل أنواع المخاطرات، ومن بينها المُبارزة بالسيف من غير هدف يدفع إلى ذلك.

ولكن مُنذ شهرين مضيا قابلت سيدة في ريعان الشباب تتفق مع ذوقي تمام الاتفاق، وذاب قلبي حُبًا على الأثر، وألفيت نفسي أنني قد قابلت مصيري أخيرًا، وإني قد أوشكت على الوقوع في أسر حبها، ولكن عندما أخذت أحصي الباقي من رأس مالي فوجدته أقل من أربعمائة جُنيهًا، وإني لأسألكم بدوري:

- هل يكفي لرجل يحترم نفسه أن يقع أسير الغرام مُعتمدًا على هذا المبلغ؟ ولذلك قر عزمي على أن أهجرها بالتأكيد.. فتركتها،

وتجنبت لقياها، ولكي أسرع في صرف ما قدرته من المال، فإني توصلت هذا الصباح إلى صرف الثمانين جُنيهًا الباقية، وهذا المبلغ قسمته إلى قسمين مُتساويين: أربعين جُنيهًا نحيتها جانبًا لغرض خاص، أما الأربعين الباقين فإني أعني صرفها قبل أن يحين الظلام.

ولقد أمضيت يومًا مُسليًا، وقمت بحيل طريفة أُخرى علاوة على الفطائر التي كانت السبب في إدخال السرور على نفسي بالتعرف عليكما، ومُصاحبتكما، من أجل ذلك كنت مُصممًا، كما أخبرتكما على أن أختتم حياة فاشلة، بنهاية أكثر فشلًا.

عندما رأيتماني أقذف بكيس النقود في عرض الطريق؛ كان ذلك نهاية الأربعين جُنيهًا الباقية، والآن فإنكما تعرفاني تمام المعرفة كمعرفتي بنفسي، إنسان غبي نزق لا يحيد عن نزقه، وأرجوكما ألا تعتقدان أني جبان، أو إني أحب أن أشكو من حالي لسواي.

وكان يبدو طيلة الوقت من نبرات صوته، وجرس حديثه أن هذا الشاب لديه فكرة سيئة مُنحطة عن نفسه.

وأدرك سامعاه من حديثه أن مُغامراته الغرامية كانت مُنبعثة من قلبه أكثر مما رغب أن يصرح به، وأنه كان عازمًا على أن يختصر عمره ويضع نهاية لحياته، وبدت لهما حيلة الفطائر أشبه بمأساة أليمة في زي من التنكر.

وقال الكولونيل جبر الدين وهو يلقي بنظرة إلى الأمير: عجبًا.. أليس من الشاذ الغريب أننا قد التقينا نحن الثلاثة بمحض المُصادفة في مدينة هائلة كلندن؛ ونحن أيضًا على حال تكاد تكون مُتشابهة؟

فصاح الشاب مُتسائلًا: كيف ذلك؟ هل أنتما مثلي مُحطمان؟ وهل عشاؤنا الليلة حماقة كفطائري؟ هل أراد الشيطان أن يجمع ثلاثة من أعوانه ليقضوا وليمة نهائية؟

فأجابه الأمير فلوريزل «صدقني إن الشيطان أحيانًا يستطيع أن يؤدي شيئًا يتسم بالرقة والكياسى، وإني في غاية التأثر من هذا التوافق والتصادف بيننا، وذلك على الرغم من أننا لسنا على حال واحد، ومُتشابه تمامًا؛ فإني سأجعل مواقفنا مُتشابهة، وأرجو أن يكون عملك المجيد الذي يُنبئ عن بطولتك في ابتلاع الفطائر مثلًا أسير على منواله.

وما أن انتهى الأمير من كلماته، حتى أخرج كيس النقود، ونزع منه حزمة صغيرة من الأوراق المالية.

وتابع الأمير حديثه قائلًا: أترى أنك قد سبقتني بأُسبوع في صرف كل ما معك من مال، ولكن أعني أن اللحاق بك قريبًا.. فهذا، ثم وضع واحدة من الأوراق المالية على المنضدة.

واستطرد قائلًا: هذا سيكون كافيًا لدمغ قائمة حسابنا، أما بخصوص الباقي.. وألقى بها في النار، وخرجت بعد احتراقها من المدخنة كسحابة من الدُخان.

وحاول الشاب أن يمسكه من ذراعه ليمنعه من إلقائها، ولكن حالت المنضدة التي كانت بينهما عن غرضه، وجاء تدخله في لحظة مُتأخرة للغاية.

فصاح الشاب: يا لك من رجل تعس! كان أحرى بك ألا تحرقها كلها، كان ينبغي عليك ألا تستبقي أربعين جُنيهًا.

فردد الأمير قائلًا: أربعين جُنيهًا! واعجبا.. ولماذا بحق السماء أربعين جُنيهًا؟

وصاح الكولونيل، ولماذا لا يكون ثمانين جُنيهًا؟ فإنها على ما اعتقد كانت مائة جنيهًا في اللفافة.

وقال الشبا في حزن: إنه لم يكن في حاجة إلى أكثر من أربعين جُنيهًا، وبدونها لم يحصل على إذن بالدخول فيها، إن القانون جاد شديد، على كل أن يدفع أربعين جُنيهًا، ما ألعنها من حياة، إن الإنسان لا يُمكن أن يموت دون أن يدفع مالًا في سبيل ذلك.

ونظر الأمير والكولونيل كل منهما إلى الآخر، وقال له الكولونيل: فسر ما تريد، فما زال في حوزتي كيس به قليل من المال، ولا أستطيع التعبير عن مقدار سروري لأن أقتسم أنا وجودول ما معي من ثروة، ولكن ينبغي أن تعرفني لأية غاية، يجب أن تخبرنا بكل تأكيد ماذا تعنيه.

وبدا على الشاب أنه قد أخذ يسترد انتباهه، وأخذ ينظر إليهما في ارتباك، وقد احمرت وجنتاه احمرارًا شديدًا.

وقال لهما: أظن أنكما لا تريدان خديعتي، فهل أنتما حقًا مُحطمان مثلي؟

فأجابه الكولونيل: إنني حقيقة مُحطم مثلك.

وأجابه الأمير: أما عن نفسي فلقد أعطيتك بُرهانًا على ذلك، فمن يُمكنه أن يلقي بماله ونقوده في النار إلا إذا كان مُحطمًا؟ إن عملي لينطق عن نفسه.

فقال الشاب في ارتياب: نعم، إما رجل مُحطم أو مليونير.

فقال الأمير: كفاك هذا يا سيدي، لقد قلت هذا، وإني لم أعتد أن يتشكك أحد في كلماتي.

فرد عليه الشاب قائلًا: أُمحطم أنت؟ هل أنت مُحطم مثلي؟ أبعد حياة قضيتها كما تهوى قد وصلت إلى النقطة التي لا تستطيع أن تفعل بعدها شيئًا ما.. هل أنت حقًا؟

وظل صوت الشاب ينخفض رويدًا رويدًا وهو يتحدث قائلًا: هل أنت حقًا ستقوم بهذا العمل الأخير؟ أستتجنب نتائج طيشك مُتخذًا ذلك الطريق السهل الذي لا يوجد سواه؟ أسوف تهرب من نفسك، وتصم أُذنيك عن نداء ضميرك من خلال ذلك الباب المفتوح على مصرعيه؟

وقطع حديثه فجأة مُجاهدًا أن يضحك، ثم استطرد صائحًا وهو يجرع كأسه: إنه في صحتك ونعمتما مساء أيها الرجلان المُحطمان المرحان.

وما كاد يهم بالنهوض حتى أمسكه الكولونيل جير الدين من ذراعه وخاطبه قائلًا: إنك لا تثق فينا وإنك مُخطئ، ولقد أجبت على كل أسئلتك بكلمة «نعم» ولكن لا أخاف أحدًا، وأستطيع أن أُحدثك في وضوح وجلاء، نحن أيضًا مثلك، قد شبعنا وسئمنا من الحياة وعقدنا عزمنا على الموت فعاجلًا أو آجلا، فرادى أو مجتمعين قد نوينا أن نُلاقي الموت.. وما دمنا قد لقيناك ، وما دامت حالتك عاجلة، فلتكن الخاتمة هذه الليلة دون أدنى تردد، وإذا شئت فلتكن خاتمتنا نحن الثلاثة.

ثم صاح قائلًا: إن ثلاثتنا المُفلسين يجب أن نخرج سويًا نتأبط أذرع بعضنا البعض، ليمنح كل منا العون لأخيه في العالم الآخر.

وحقًا لقد وجد جير الدين الكلمات المُناسبة الصحيحة، والطريقة المُلائمة للدور الذي كان يقوم به.

وانزعج الأمير نفسه، ونظر إلى صديقه وعلى وجهه ظلال من الشك، ثم احمرت وجنتا الشاب مرة أُخرى احمرارًا شديدًا ولمعت عيناه بنور شديد.

وصاح الشاب قائلًا في جذل عنيف: أنتما الرجلان اللذان أنشدهما، ولنتصافح يدًا بيد لاتفاقنا على هذه الصفقة (وكانت يده باردة ورطبة) إنكما لا تعرفان في أية صُحبة سوف تغذان المسير، وإنكما لا تعرفا تلك اللحظة السعيدة التي كانت تنتظركما عندما قابلتما فطائري! وإني لأعرب الباب الخاص المؤدي للموت.. نعم، فإني واحد من هؤلاء الذين يعرفونه جيدًا، وأستطيع أن أصل بكما إلى دار الخلود دون أن تجدا مشقة وعناء، ودون أن يلومكما أحد من الناس.

وسألاه في شغف أن يشرح لهما ماذا يقصد بذلك.

فسألهما: أمعكما ثمانين جُنيهًا؟

فتظاهر جير الدين بالنظر في حافظته وقال له إن المبلغ معه.

فصاح الشاب قائلًا: يا لحظكما السعيد، إن أربعين جُنيهًا هي رسم الدخول إلى نادي الانتحار.

فقال الأمير مشدوهًا مُتسائلًا: نادي الانتحار! واعجبا وماذا يكون هذا النادي بحق الشيطان؟

فقال الشاب: أنصتا، نحن نعيش في العصر الحديث، عصر الوسائل المريحة، وينبغي أن أخبركما عن أحدث اختراع من هذا النوع، في كل مكان أعمال يؤديها الناس، ومن أجل هذا اخترعت السكك الحديدية، ولكن هذه القطر قد أبعدتنا كثيرًا عن أصدقائنا، ومن أجل هذا أيضًا أُخترع التلغراف حتى يُمكن أن يتصل الناس بعضهم ببعض من مسافات شاسعة على جناح السرعة، وأصبحت المصانع في البيوت في مُتناول أيدينا حتى تُوفر علينا أن نصعد مئات من الأدراج.

ونعرف جميعًا أن الحياة ما هي إلا مسرح تُمثل عليه ملهاة فكهة ما دام الدور الذي نُمثله فيها يُسلينا ويُمتعنا، وإن وسائل الترفيه الحديثة لينقصها عامل مُريح آخر – لينقصها طريقة مُبسطة سهلة لكي تترك هذا المسرح؛ ينقصها باب ننفذ منه إلى الحرية؛ أو كما قلت في هذه اللحظة باب خاص يفضى إلى الموت، وهذا أيها الزميلان الثائران على الحياة، قد وضعه في متناول أيدينا، وفي طريقنا نادي الانتحار.

لا تظنا أنكما وأنا الأشخاص الوحيدون أو الشاذون في إظهار رغبتنا المعقولة في ترك الحياة، إن عددًا كبيرًا من رُفقائنا، الذين سئموا الدور الذي ينتظر أن يقوموا به كل يوم طيلة حياتهم قد امتنعوا عن ترك الحياة لسبب واحد أو سببين، إن بعضهم يعول أسرًا قد يصدمها النبأ، أو يقع على رؤوسها اللوم إذا ما افتضح الأمر، أما الآخرون فإنهم يُعانون ضعفًا يجعلهم

يهابون ظروف الموت، وهذه الحالة هي نفس الظرف الذي أُقاسيه؛ فإني لا أستطيع أن أُصوب مُسدسًا إلى رأسي وأطلق النار، هُنالك شيء أقوى من نفسي يقف حائلًا بيني وبين التنفيذ، وعلى الرغم من أنني أكره الحياة فإني لا أجد القوة لأموت وأقضي على حياتي.

- فلكل فرد مثلي، ولكل هؤلاء الذين يريدون أن يتركوا الحياة دون أن يخشوا الفضيحة، قد تأسس نادي الانتحار ليوفي بهذا الغرض، ولكن كيف قام هذا النادي؟ وما هي البواعث التي أدت إلى تأسيسه؟ وهل هو قائم بنفسه أم له فروع أُخرى في أقطار أُخرى؟ فهذا كله لا أعلم عنه شيئًا، وإن ما أعرفه عن قوانينه فليس مسموحًا لي أن أقصه عليكما.

وهذا هو كل ما يُمكنني أن أفعله من أجلكما، إذا كنتما قد سئمتما الحياة، فسوف أُقدمكما الليلة إلى اجتماع، أما إذا لم يكن الليلة فلنرجئه إلى وقت آخر خلال هذا الأسبوع، وستنزع حياتكما في غاية من اليُسر.

ثم نظر إلى ساعته وقال مُستطردًا، إن الساعة الآن الحادية عشرة، وعلى الأكثر يجب أن ننصرف بعد نصف ساعة، بعد أن تفكروا فيما عرضته عليكما، إن الأمر أشد خطورة من فطيرة محشوة بالقشد، ثم اردف وهو يبتسم، بل أظن أنه يفوقها حلاوة.

فأجاب الكولونيل: إن الأمر لخطير حقًا وأشد خطورة، ولذا أرجوا أن تأذن لي أن أتحدث خمسة دقائق على انفراد مع صديقي مستر جودول.

فأجاب الشاب: إن هذا عين العدل، وإذا أذنت لي فإني سأنسحب جانبًا.

وما كاد الاثنان ينظران سويًا حتى بدأ فلوريزل الحديث قائلًا: ما الفائدة المرجوة من هذه المُناقشة يا جير الدين؟ إني أراك مُنزعجًا، بينما استقر عقلي في هدوء تام على أمر وسأرى هذا الأمر حتى نهاية الشوط.

فقال الكولونيل وقد امتقع وجهه: يا صاحب السمو أرجوك أن تسمح لي بأن أُبين لك قيمة حياتك، ليس فقط لدى أصدقائك، وإنما قيمتها لدى المصلحة العامة، فإذا ما قدر الله أن تحدث مصيبة بشعة لسمك، فأرجوك إذن أن تسمح لي أن أُبين لك كم سيصيبني من يأس، وكم سيصيب أُمتك العظيمة من جزع؟

فرد عليه الأمير في نبرات هادئة للغاية: إني سأتعقب هذا الأمر حتى نهاية الشوط، وأرجوك يا جير الدين أن تُحافظ على كلمة الشرف كسيد مُهذب، وأرجوك أن تتذكر أنه ليس مسموح لك في أي ظرف آخر، ودون إذن مني أن تبوح بالسر عن شخصيتي الحقة، وهاك هي أوامري التي أعيدها وأُكررها على مسامعك، ثم أضاف قائلًا له: والآن دعني أطلب إليك أن تدفع قائمة الحساب.

وأطاعه جير الدين على مضض، وامتقع وجهه عندما نادى على الشاب صاحب الفطائر، وأعطى أوامره للساقي، بينما احتفظ الأمير بهدوء مظهره، وأخذ يصف في مرح فائق، ومتعة كبيرة مسرحية كان قد رآها أخيرًا للشاب المُصمم على الانتحار؛ واجتهد أن يتجنب عيني

صديقه الكولونيل، وبذلك فعل أقصى ما يُمكنه على أن يجعله يُغير رأيه، ثم اختار سيجارًا في حرص غير مألوف، والحق يُقال أنه كان هو الشخص الوحيد الذي استطاع أن يُسيطر على أعصابه من بينهم جميعًا.

ودفع القائمة، وأعطى الأمير كل ما تبقى من الورقة المالية إلى الساقي الذي غلبت عليه الدهشة، وانطلق ثلاثتهم خارجين من الحانة وركبوا عربة، وبعد أن سارت بهم قليلًا توقفت عن باب فناء مُظلم نوعًا ما حيث نزلوا جميعًا.

وبعد أن دفع جير الدين أُجرة العربة، استدار الشاب نحو الأمير وخاطبه بالآتي:

- ما يزال لديك وقت وفير يا مستر جودول لأن ترجع القهقري إلى العبودية، وانت كذلك يا ماجور هامر سميث، فكرا مليًا في الأمر قبل أن تخطوا خطوة واحدة، وإذا قال لكما قلباكما «لا» فهاكما مفترق الطريق بيننا.

فقال له الأمير: تقدمنا يا سيدي.. إنني لست الرجل الذي يتراجع أو ينقض أمرًا قد قاله من قبل.

فأجاب مُرشدهما: إن هذا الهدوء المُرتسم عليك يفيدني كثيرًا، فلم أرى في حياتي على الإطلاق شخصًا ثابتًا مثلك في مثل هذا الموقف، ولست أول فرد قد أحضرته أمام هذا الباب، ولقد ذهب قبلي أكثر من صديق لي، ذهب إلى حيث أنا ذاهب الآن، لكن هذا لا يهمك في كثير أو قليل، وانتظر هنا فترة دقائق معدودات وسأعود طالما أعمل على ترتيب السماح لكما بالدخول.

وما ألقى الشاب بهذه الكلمات حتى لوح بيديه لرفيقيه، ثم اتجه نحو الفناء، وغاب عن الأنظار.

وقال الكولونيل جير الدين في صوت هادئ: هذا لعمري لهو أشد عمل يزق، وتصرف خطر، بل أشد اندفاعًا وخطرًا من كل ما اقترفناه من حماقات.

فرد عليه الأمير قائلًا: أعتقد ذلك تمام الاعتقاد.

واستطرد الأمير قائلًا: ما زالت أمامنا لحظات نتدبر فيها أُمورنا، ودعني أطلب من سموك والح في الرجاء أن ننتهز هذه الفرصة لننسحب، وإن نتائج هذه الخطوة التي سنخطوها ما زالت في طي الكتمان، ومحفوفة بالغموض وقد تكون رهيبة، الأمر الذي يجعلني أشعر أن لدي الحق لأن أُخاطبك بحرية لم يعهدها سموك في فترات وحدتنا وانفرادنا سويًا.

- وهل يعني كلامك هذا أنك خائف يا كولونيل؟

قال له هذه الكلمات وهو يأخذ سيجارة من فمه، ونظر في اهتمام كبير في وجه صديقه الذي رد عليه في كبرياء قائلًا:

- لست خائفًا على نفسي، وإنما خوفي على سموك بكل تأكيد.

فقال له الأمير في دعابة ثابته: لقد فكرت في ذلك من قبل، ولعل هذا هو السبب الذي من أجله لم أرغب في أن أُذكرك بالفارق بين منزلتينا، هذا كل ما في الأمر.

ثم استطرد قائلًا وقد لاحظ أن جير الدين قد بدأ في الاعتذار له: لقد قبلت عذرك وسامحتك.

ثم انصرف إلى تدخين سيجارة في هدوء وهو يتكأ إلى الحائط حتى عاد إليه الشاب من الداخل فقال له: حسنًا.. لقد أعددت الأمر لدخولنا.

فرد عليه الشاب: اتبعاني.. ولسوف يكون الرئيس في استقبالكما، ولكن إياكما أن تخبراه بالحقيقة، لقد ضمنت كل شيء في سبيلكما، ومع ذلك فإن النادي يلح في طلب استفسار دقيق قبل الإذن بالدخول، ومع ذلك أن عضوًا واحدًا لا يحفظ السر بخصوص هذا النادي، فإنه بلا شك سيعمل على تحطيم الجماعة كلها إلى الأبد.

وهمس كل من الأمير وجير الدين في أُذن بعضيهما لحظة، واتفقا فيما بينهما أن كل واحد منهما يُعزز ما يقوله الآخر ويُؤمن عليه، وأن يتظاهر كلاهما أنهما على أتم معرفة وأُلفه فيما بينهما، وهكذا أصبحا مُستعدين لأن يتبعا مرشدهما إلى غرفة رئيس النادي.

ولم تكن هُناك عقبات في طريقهما، وكان الباب الخارجي مفتوحًا، وكذلك كان باب الرئيس مفتوحًا أيضًا، وفي غرفته الصغيرة المُرتفعة تركهما الشاب مرة أُخرى وقال لهما وهو ينصرف: إن الرئيس سيحضر إليكما في الحال.

واستطاعا أن يسمعا الأصوات العديدة من خلال الباب الذي كان بمثابة مخرج للنادي، ومن حين لآخر كان يقطع حديث الناس صوت فرقعة سداد الفلين وهو ينزع من زجاجات «الشمبانيا» ويعقبها ضحك عال؛ وكانت هُناك نافذة واحدة تشرف على النهر، واستطاعا أن يحكما من

تطلعهما إلى مصابيح الشارع أنهما ليس ببعيد عن محطة شارنج كروس؛ وكان أثاث الغرفة فقيرًا مُتواضعًا، وكانت أغطية الكراسي بالية، ولم يكن بالغرفة شيء مُتحرك سوى جرس يدوي صغير يتوسط منضدة مُستديرة، وكانت قبعات ومعاطف مجموعة كبيرة من الناس مُعلقة على المشاجب المُثبتة حول الجدران.

فقال جير الدين: ماذا يكون هذا المكان؟

فأجاب الأمير: هذا ما جئت من أجله، فإذا كانوا يحتفظون في هذا المكان بشياطين على قيد الحياة، فإن الأمر سيكون باعثًا على التسلية.

وعند ذلك فُتِحَ باب الغرفة بدرجة تسمح لجسم إنسان واحد أن يمر من خلاله، حيث دخل منه رئيس نادي الانتحار الذي يشيع في النفوس الرهبة.

وكان الرئيس في الخمسين من عمره أو أكثر؛ رجلًا ضخمًا، خطواته غير ثابتة، ذا لحية شعثاء كثة، أصلع من قمة رأسه، وعيناه رماديتان، تكاد تكون مُغلقتين.

وظل يُحرك سيجاره حركة دائرية في فمه من جهة لأخرى وهو يتطلع في حدة وعنف وبرود إلى الغريبين، وكان يرتدي حلة خفيفة، وكانت ياقة قميصه المُخططة تكشف عن رقبته، وكان يحمل كتابًا صغيرًا تحت ذراعه.

وقال لهما بعد أن أغلق الباب خلفه: طاب مساؤكما، لقد أُخبرت أنكما تريدان الحديث معي.

فأجابه الكولونيل: لدينا رغبة في أن نلتحق بنادي الانتحار.

فأخذ الرجل يُقلب سيجاره في فمه، وقال له مُحتدًا: ما هذا الذي تقوله؟

فرد عليه الكولونيل: عفوًا يا سيدي، ولكن أعتقد أنك أفضل إنسان يُمكنه أن يعطينا الأنباء والمعلومات الصحيحة في مثل ذلك الموضوع.

فصاح الرئيس: أنا؟ نادي الانتحار؟ هيا.. هيا.. ما هذا كله إلا فُكاهة، ويُمكن أن أفهم على وجه التأكيد، بل أصفح عن السادة الذين يمزحون بعد أن تكون الخمر قد لعبت برؤوسهم، ولكن لتضعا حدًا ونهاية لهذا الحديث.

فرد عليه الكولونيل قائلًا: فلتسم ناديك ما شئت من الأسماء، فإن لديك بعض الصحاب خلف هذه الأبواب، ونحن نلح في أن نشترك معهم.

فرد عليه الرئيس في هدوء: سيدي إنك قد أخطأت، فما هذا إلا بيت خاص، ويجب أن تُغادره في الحال.

وظل الأمير طيلة هذه المُحادثة هادئًا، ولكنه الآن وبعد أن نظر إليه الكولونيل كما لو كان يرغب أن يقول له: ليكن هذا هو دورك ولتنصرف بحق السماء، ثم نزع سيجاره من فمه وقال: لقد جئت هنا تلبية لدعوة صديق لك، وهو بلا شك قد أخبرك بعزمي وبنيتي عندما قال لك إني لن أشترك مع هذه الجماعة، ودعني أُذكرك أن إنسانًا في مثل مركزي، لديه القليل ليفقده، وإنه ليس من المُحتمل إطلاقًا أن يقبل خشونة أكبر من هذه، وما أنا إلا شخص هادئ دائمًا، ولكن يا سيدي إما أنك سوف

تتصرف في هذا الموضوع الذي تعرفه كما أشاء، وإلا فإنك سوف تندم أشد الندم على أني قد جئت إلى غُرفتك هذه.

فضحك الأمير بصوت عالٍ وقال: هذه هي الطريقة المُثلى للحديث، وإنك لجدير برجولتك، فأنت رجل حقًا، ولقد عرفت كيف تغزو قلبي، ويُمكنك أن تفعل معي ما تشاء.. أتسمح؟

والتفت إلى جير الدين مُوجهًا حديثه إليه: هل تسمح أن تترك الغرفة بضع دقائق؟ ولسوف أنهي حديثي أولًا مع رفيقك، وينبغي أن أنجز سرًا بعض الرسميات الخاصة بالنادي.

وما أن انتهى من هذه الكلمات حتى فتح بابًا آخر لغرفة صغيرة، وأغلقها على جير الدين.

وقال لفلوريزل وهما منفردان: إني أثق فيك، ولكن هل أنت واثق من صديقك؟

فأجابه فلوريزل: لست مُتأكدًا تمامًا كثقتي بنفسي، على الرغم من أن لديه أسباب كثيرة واضحة كل الوضوح، ولكني واثق من أنه يُمكنني أن أحضره هنا دون خوف ما، فلقد طُرِدَ من الجيش مُنذ عدة أيام لاتهامه بالغش في لعب الورق.

فأجاب الرئيس: إنه لسبب معقول حقًا، فلدينا عضو حالته مثل حالة صديقك، وإني لواثق منه تمامًا، وهل لي أن أسألك أكنت بالجيش؟

فرد عليه الأمير: نعم كنت، ولكن كنت كسولًا للغاية، وتركته من مدة طويلة.

وتابع الرئيس حديثه مُتسائلًا: وما هو سبب تعبك من الحياة؟

فأجابه الأمير: إنه نفس السبب الذي دفعني إلى ترك الجيش، الكسل الشديد.

فاعتدل الرئيس في جلسته وفي دهشة بالغة وقال: ألا لعنة الله عليه! لا بد وأن لديك شيء أفضل منه.

فأضاف فلوريزل: لا أملك مالًا كثيرًا وهذه مُضايقة أُخرى لي بلا شك، وتعمل على إرهاف حدة الكسل عندي.

وأخذ الرئيس يُحرك سيجاره في فمه عدة ثوان، وهو يُحملق في قوة مُسددًا عينيه إلى عيني ذلك القادم الجديد الغريب الأطوار، ولكن الأمير ثبت في هذا الامتحان أمامه ولم تُفارق وجهه أمارات الهدوء التام.

وقال الرئيس أخيرًا: إذا لم أكن رجل تجارب ما ترددت في طردك، ولكني خبرت الحياة، وأعرف أن ما يبدو تافهًا من الأسباب الدافعة على الانتحار هي غالبًا التي لا يُمكن لأحد أن ينكرها، وإذا ما أحببت إنسانًا حُبًا عميقًا كما أحببتك يا سيدي فإني لأُفضل في مثل هذه الأحوال أن أتغاضى عن اتباع قوانين النادي على أن أطرده منه.

وسأل الرئيس كلا من الأمير والكولونيل أسئلة عديدة مجملة، ولقد سئل الأمير أولًا بمفرده ثم جير الدين في حضور الأمير لكي يُراقب الرئيس

وجه كل منهما، وهو يُوجه الأسئلة إلى أحدهما توجيهًا سديدًا.

وكانت نتيجة هذه الأسئلة مُرضية، وبعد أن دوّن الرئيس تفاصيل قليلة عن كل واحد منهما، استخرج نموذجًا كتب عليه يمين الالتحاق بالنادي، إذا كان المفروض على العضو الجديد أن يقسم يمين الطاعة العمياء، وأن يلزم نفسه بإطاعة أقسى الشروط، وإذا استطاع أي فرد أن يتغاضى أو يحيد عن هذا القسم الرهيب فإنه يكون مسلوب الشرف كافرًا بدينه، ووقع فلوريزل الورقة وهو يرتجف وأمضاها بعده الكولونيل ووجهه يقطر حزنًا، ثم تسلم الرئيس منهما رسم الدخول، وأدخل الصديقين في الحال إلى غرفة التدخين في النادي.

وكانت الغرفة تضيء بنار تشتعل في لمعان، وأنوار مصابيح مُتناثرة في السقف، وأكمل الأمير وتابعه عدد الحاضرين في الغرفة إلى ثمانية عشر فردًا، وكانت غالبية الحاضرين تُدخن وتشرب «الشمبانيا» وقد سيطرت على الجميع نوبة من الابتهاج الشديد فسأل الأمير: هل هذا اجتماع كامل؟

فقال الرئيس: بين ذلك (تقريبًا) ثم عقب قائلًا: لا تنسيا إن كان معكما نقود أن تطلبا قليلًا من «الشمبانيا» فإنها تبعث على الانشراح، كما وإنها إحدى المصادر الإضافية لدخلي.

فقال له فلوريزل: قد أترك الشمبانيا لك يا هامر سميث.

ثم انصرف ليتجول بين الضيوف، وتبعا لأنه كان مُعتادًا على أن يقوم بدور المضيف في أرقى الطبقات، فإنه قد استولى على مجامع القلوب،

وسيطر على كل من جلس بجواره، وكان له من روحه ومسلكه ما أكسبه الأفئدة، وأملى إرادته عليها، وقد ميزه أيضًا هدوءه الغير مألوف وجعله مُبرزًا ظاهرًا وسط تلك الجماعة التي كاد يقضي عليها الجنون.

وكان كلما انتقل من شخص إلى آخر يفتح عينيه، ويرهف أُذنيه بكل ما يحيط به، وسرعان ما كوّن فكرة عامة عن الناس المُحيطين به.

ولقد ساد الجميع طابع واحد: أُناس في ريعان الشباب، وربيع العمر، تلوح عليهم مخايل الذكاء، وينبضون بكل الإحساسات، ولكن تعوزهم بوارق القوة والميزات التي تُؤهلهم للنجاح، وقليل منهم من يفوق سن الثلاثين، بل الكثيرون كانوا ولا يزالون في سن العشرين.

وكانوا يقفون هُنا وهُناك مُستندين إلى المناضد، وهم يهزون أقدامهم في قلق، وأحيانًا يدخنون سجائرهم بسرعة فائقة، وأحيانًا يتركونها تشتعل حتى تنطفئ دون أن يدخنوها.

وكان البعض يجيد الحديث، بينما كان حديث البعض الآخر ما هو إلا نتيجة اضطراب أعصابهم، ويتحدثون حديثًا مُملًا لا هدف فيه، ولا قصد منه، وكانت كلما فتحت زجاجة من «الشمبانيا» تسري فيهم حركة خفيفة من المرح.

وكان هُنالك اثنان فقط يجلسان – أحدهما جالس على كرسي في ركن بجوار النافذة ورأسه مُدلاة ويداه ثابتتان في جيوب سرواله، مُمتقع الوجه يكسوه العرق في شكل ظاهر، لا ينبس ببنت شفة مُطرقًا مُحطم الروح والجسم.

أما الآخر فقد جلس على أريكة مُلاصقًا للمدفأة، وقد جذب الانتباه باختلاف وضعه عن الجميع اختلافًا كبيرًا، وقد جاوز الأربعين ولكن يبدو عليه أنه في الخمسين، ولقد أيقن فلوريزل أنه لم ير في حياته على الإطلاق رجلًا يُماثله في القبح، أو شخصًا مثله قد أوغلت فيه عوامل المرض والاضطراب فحطمته تحطيمًا، فلم يكن أكثر من صورة من الجلد والعظام، وكان مشلولًا شللًا نصفيًا، ويضع على عينيه منظارًا غاية في السُمك، وفيما عدا هدوء الأمير والرئيس كان هو الشخص الوحيد في الغرفة الذي حافظ على هدوء مظهره، وحياته المألوفة.

وكان أعضاء النادي يتمسكون بقليل من السلوك المُهذب، إذ كان بعضهم يفخر بأعمال فاضحة مُشينة، أرغمتهم نتائجها على أن يفضلوا الموت على الحياة، بينما كان الآخرون ينصتون دون أن يبدوا مُخالفة لما يسمعون، وكان يبدو عليهم جميعًا أنهم يأنفون ويعزفون عن الحكم على أي عمل بالاستحسان أو الاستهجان، وكان كل من دخل النادي يبدو عليه أيضًا أنه قد أخذ في التمتع بحريات من أوشك على أن يودع الحياة إلى القبر.

وكانوا يشربون أنخابًا في ذكريات كل منهم، وفي حوادث الانتحار المشهورة الماضية، وكانوا يُقارنون بين وجهات نظرهم عن الموت، ويوضحون اختلافاتها، وأعلن بعضهم أن الموت ليس إلا الظلام الدامس الذي يعقبه الموت، وكان البعض يُراودهم الأمل الكبير في أنهم سيكونون في ليلة موتهم نفسها بين النجوم حيث يُقابلون عظماء الموتى السالفين.

وصاح أحدهم وهو يشرب: في ذكرى البارون ترنك، المثل الأعلى للمنتحرين، الذي ترك هذا العالم الضيق المحدود من خلال تابوت أكثر ضيقًا حيث ينفذ منه إلى عالم الحرية.

وقال رجل ثان: أما فيما يخصني فلا تهفو نفسي شيئًا سوى عصابة وقطعة قطن لأُذني، فإنه لا يوجد قطن سميك كاف في هذا العالم.

وأخذ ثالث يُفسر أفكاره عن الحياة بعد الموت، بينما صرح ثالث أنه ما كان ليلتحق بالنادي إذا لم يستطع أن يرغم على الاعتقاد بما قاله مستر دارون في نظريته.

وقال هذا المنتحر الجديد الذكر: إني لا أطيق أن أكون مُنحدرًا من سلالة القرود[1].

وخاب أمل الأمير بمسلك وحديث الأعضاء جميعًا خيبة تامة.

وقال الأمير مُحدثًا نفسه: إن الأمر يبدو لي أنه لا يستحق كل هذا العناء، فإذا ما صمم إنسان على أن يقتل نفسه فلا يتردد في ذلك بحق الله، وليفعل كأي سيد مُهذب، وهذا الفخر، وذلك الحديث الأجوف خارجان عن الموضوع.

وفي أثناء ذلك استولى على الكولونيل جير الدين خوف شديد، فما زال في نظره النادي وأعضاؤه أمورًا يحيط بها الغموض، وتلفت حوله في الغرفة لعله يجد فردًا يريح باله من ذلك العناء، فوقع بصره على ذلك الرجل المشلول

---

(١) يقول العلامة دارون في نظرية التطور أن الإنسان الأول أصله قرد، ثم تطور الإنسان حتى أصبح بشكله المألوف.

صاحب المنظار السميك، وعندما ألفاه ما يزال على هدوءه، طلب من الرئيس الذي كان مُنهمكًا في الدخول والخروج من القاعة تحت ضغط أعماله، طلب منه أن يُقدمه إلى السيد الجالس على الأريكة.

فشرح له الرئيس عدم جدوى اتباع مثل تلك الرسميات في النادي، ولكن على الرغم من ذلك فقد قدم مستر هامر سميث إلى مستر مالتوس.

ونظر مستر مالتوس إلى الكولونيل في شغف، ثم طلب إليه أن يجلس على مقعد عن يمينه، ثم قال له: لعلك قادم جديد، وترغب في الحصول على بعض المعلومات، لقد جئت إلى المصدر الموثوق به، ولقد مضى عامان مُنذ أن جئت إلى هذا النادي الساحر.

وتنفس الكولونيل مرة أُخرى في ارتياح، فما دام مستر مالتوس قد داوم على الحضور إلى النادي لمدة عامين فإذًا ليس هُناك من خطر يُهدد الأمير من جراء قضائه ليلة واحدة، ولكن كان الكولونيل مع ذلك مُندهشًا، وبدأ يرتاب في أنه لا بُد من وجود خطأ ما.

فصاح مُتسائلًا وقد عرته الدهشة: ماذا!! سنتان؟ لقد ظننت... ولكني أرى نفسي الآن قد أصبحت موضوعًا للفُكاهة.

فأجابه مستر مالتوس في لطف: لست على الإطلاق، فإن حالتي مُختلفة، وبمعنى أدق لست إطلاقًا مُنتحرًا وما أنا إلا عضو شرف، وقلما أزور هذا أكثر من مرة واحدة شهريًا؛ فإن ما بي من مرض، وما يحبوني به الرئيس من عطف، قد ضمنا لي بعض الحرية الضئيلة، والتي في سبيلها أدفع نسبة أعلى من الاشتراكات، وحتى مع إتاحة هذه الفرص لي فإن

حظي ليس على ما يُرام.

فقال له الكولونيل: أخشى أن أطلب إليك أن تُوضح لي موقفك أكثر، ولا تنس أني ما زلت أجهل قوانين هذا النادي.

فرد عليه المشلول قائلًا: إن العضو العادي، الذي تقوده ساقاه إلى هُنا وراء الموت مثلك، يتردد على النادي كل ليلة حتى يجد الحظ له مُواتيًا، وإذا ما أعوزه المال، فإن الرئيس يُمهد له وسائل المسكن والمأكل، مسكنًا ومأكلًا مُناسبين نظيفين، وإن لم يكونا بالطبع فاخرين، ومن العسير أن يكونا كذلك إذا تدبرنا أن ضآلة الأجر الذي يدفعه مثل هذا العضو، وأضف إلى ذلك أن رفقة الرئيس هي آية من السرور.

فصاح جير الدين مدهوشًا: أحقًا ما تقول؟! فأنا لم أجد مُطلقًا أنه شخص جذاب.

فقال مستر مالتوس: آه، إنك لا تعرف هذا الرجل، إنه أظرف وألطف مخلوق، ما أمتع قصصه! ويا له من مُتشكك لاذع في كل شيء! قد خبر أمور الحياة، وسبر غورها، وبيني وبينك أنه ربما أعظم وغد ستقع عليه عيناك.

فسأله الكولونيل: وهل هو مثلك مستديم؟ إذا استطعت أن أقول ذلك دون إهانة لك.

فأجاب مستر مالتوس: نعم، إنه لكذلك، ولكنه يختلف عني؛ فلقد أنقذتني الأقدار، ولكن سيُتاح لي يوم أذهب فيه، إنه لا يلعب الورق مُطلقًا، وإنما «يفنط» الورق، ويُوزعه على أعضاء النادي، ويقوم بالترتيبات اللازمة.

إن ذلك الرجل يا مستر هامر سميث، رجل داهية ذو عقلية مُبدعة، ولقد مضى عليه ثلاثة أعوام في لندن وهو مُنهمك في هذا العمل المُفيد، وقد أُضيف له حسب تقديري صفة أُخرى: هذا العمل الفني، والذي لا تشوبه على الإطلاق سحابة من الشك.

وتذكر بالتأكيد ذلك الحادث المشهور مُنذ ستة أشهر الذي ألم بذلك السيد الذي تسمم بوجه الصدف في صيدلية؟ كان هذا الحادث من أبسط آرائه، ويا له من بسيط، ويا له من مأمون الجانب!

فقال له الكولونيل: إنك لتدهشني، إنك لتدهشني، إن كان ذلك السيد التعس واحدًا من... وأمسك عن الكلام، وكان على وشك أن يقول من «الضحايا» وغير الكلمة قائلًا: من أعضاء النادي؟

وفي نفس الوقت، جال في خاطره أن مستر مالتوس لم يتحدث على الإطلاق في نبرات ولهجة شخص يحب الموت، وأضاف قائلًا: ومع ذلك فإني لم أفهم بعد.. إنك تتحدث عن «تفنيط» وتوزيع الورق.. فلأي غرض هذا؟ وما دام يبدو عليك أنك غير راغب في الموت، وتُفضل الحياة، فاسمح لي أن أُقرر أني لا أجد ما يُبرر وجودك هُنا.

فرد عليه مستر مالتوس بحيوية فياضة: إنك تقول حقًا إنك لم تفهم ما أقوله بعد، فما هذا النادي يا سيدي إلا المكان المُقدس لأسمى صخب، ولولا صحتي المُعتلة فصدقني لكنت أُداوم على الحضور هُنا كثيرًا، وإن الأمر ليتطلب مني شعورًا بالواجب فرضه عليّ اعتلال صحتي في ألا أنغمس في هذا اللهو، الذي أستطيع أن أقول إنه مُتعتي الأخيرة، لقد

جربت كل هذه الأشياء يا سيدي، ثم استطرد واضعًا يده على ذراع جير الدين، لقد جربتها وتذوقتها دون استثناء، وإني لأقسم لك بشرفي، أن لا واحدة من تلك المباهج تبدو لي أكثر أهمية مما هي في حقيقتها، وإن العاطفة الحقة الوحيدة هي الخوف؛ فالخوف عاطفة قوية، إنه الخوف الذي يجب أن تتذوقه إذا شئت أن تشعر بمباهج الحياة ومُتعها، فلتحسدني يا سيدي.. احسدني، وأضاف ضاحكًا: احسدني فإني جبان.

ولم يستطيع جير الدين أن يمنع نفسه من أن يظهر كراهيته لدمار مُحدثه الرهيب، ولكنه سيطر على مشاعره، باذلًا كل جُهد، واستمر في توجيه أسئلته قائلًا له:

كيف يا سيدي؟ كيف أن الصخب قد طال بهذه البراعة؟ وهل يوجد فيه عُنصر من عناصر الشك، وعدم اليقين؟

فأجابه مالتوس: سأُحدثك كيف تختار الضحية كل ليلة، وليست الضحية فحسب، بل يُختار كذلك عضو من أعضاء النادي الذي عليه أن يُنفذ حكم الموت.

فقال الكولونيل مشدوهًا: يا إلهي! هل يقتلون بعضهم بعضًا؟

فأجاب مالتوس بانحناءة: إن مشاق الانتحار تُنفذ ويُقضى فيها بهذه الطريقة.

فصاح الكولونيل: سبحانك يا رحيم، وهل أنت – أو أنا – أو صديقي – قد يقع على أول واحد فينا الاختيار ليقتل جسد الآخر، ويقضي على روحه الخالد؟ هل هذه الأشياء مُمكنة؟ آه.. يا له من خزي وعار!

وكان على وشك أن ينهض من رعبه، عندما لاحظ الأمير ينظر إليه من خلال الغرفة في غضب، وفي لحظة أُخرى عاد جير الدين لأداء دوره وأضاف قائلًا: وبعد كل هذا لِم لا؟ وما دُمت تقول أن اللعبة مُسلية ومُمتعة فسوف أشترك فيها بكل تأكيد.

ولقد استهوى مستر مالتوش دهشة واشمئزاز الكولونيل استهواءًا كبيرًا، ولقد كان مغرورًا وتباهي بخسته وشره، وأثلج قلبه أن يرى شعورًا كريمًا في شخص آخر، بينما أحس في الوقت نفسه أنه مُتسام في مشاعره على الرغم من فساده الكامل.

وقال له: والآن بعد أن اعترتك اللحظة الأولى من الدهشة، أرى أنك قادر على أن تفهم المباهج التي تتمتع بها، حيث أنك عضو في النادي، ويُمكنك أن ترى كيف أنه يجمع بين صخب مائدة القمار والمُبارزة بالسيف، ومُقاتلة الحيوانات المُفترسة طبقًا للطريقة الرومانية.

ولقد ابتدع الوثنيون الرومان مجموعة كاملة من المُسليات، وإني لأعجب بهم من أطواء قلبي، ولقد ترك الباقي لقطر مسيحي لكي يصل بها إلى درجة سامية – سامية في الصخب، وستفهم كيف تبدو كل المُسليات الأُخرى سخيفة بالنسبة لرجل قد كوّن في نفسه ميلًا نحو واحدة منها، واستطرد قائلًا:

إن اللعبة التي تُمارسها لهي آية في البساطة، ربطة كاملة من ورق اللعب، وأرى أنك ستُشاهد الآن اللعبة كما تحدث أمام ناظريك، اتسمح أن أستند إلى ذراعك؟ فأنا مشلول لسوء حظي.

وحقًا فما كاد مستر مالتوس يبدأ في الوصف حتى فُتِحَ بابان في عُنف على مصراعيهما، وبدأ كل من في النادي يدلفون إلى غرفة مُجاورة في سرعة ما، وكانت تشبه الغرفة الأُخرى في كل شيء، ولكن كان أثاثها مُختلف نوعًا ما، وكانت هُنالك منضدة خضراء طويلة تتوسط الغرفة، وجلس إليها الرئيس «يُفنط» مجموعة من الورق في عناية.

وعلى الرغم من أن مستر مالتوس كان يتوكأ على عصا وذراع الكولونيل، فإنه كان يسير في مشقة كبيرة، حتى أن كل فرد قد اتخذ مكانه قبلها، كما سبقهما الأمير في الدخول أيضًا بعد أن كان في انتظارهما، وتبعًا لتأخرهم في الدخول فإنهم احتلوا المقاعد المُتلاصقة في الطرف البعيد من المنضدة.

وهمس مستر مالتوس قائلًا: إن هذه المجموعة مُكونة من اثنين وخمسين ورقة.

لاحظ أثناء اللعب أن ورقة (الآس البستوني – وهي على شكل القلب) ترمز إلى الموت، بينما ورقة (الآس السباتي) ترمز إلى الشخص الذي يقع عليه الاختيار في أن يُنفذ حكم الموت، ثم أضاف قائلًا: أيها الشباب إنكم تستطيعون أن تتبعوا اللعبة بعيونكم الحادة، أما أنا فلا يُمكنني أن أُميز «الآس» على المنضدة.

ثم ثبت زوجًا آخر من العوينات على منظاره الأول، وأوضح قائلًا: يجب على الأقل أن أُراقب الوجوه.

فأسرع الكولونيل يخبر صديقه عن كل ما قد علمه من مستر مالتوس،

وعن الاحتمالات المُخيفة التي تنتظرهم، وأحس الأمير فجأة بقشعريرة باردة تسري في كيانه، كأنها قشعريرة الموت، وبضيق يجسم على نفسه، وبلع ريقه في صعوبة، وأخذ ينظر من ناحية إلى أُخرى كأنه رجل طار صوابه.

فهمس الكولونيل في أُذنه قائلًا: بحركة واحدة مُباغتة يُمكننا أن نخرج من هُنا.

وشجعت هذه الكلمات الأمير مرة أُخرى، وقال: الزموا السكون، واثبت لي أنك تستطيع أن تلعب كأحد السادة، ولا يضيرك أنك قد تكسب أو تخسر.

وتطلع حوله، وقد بدا هادئ النفس، على الرغم من أن دقات قلبه كانت مُسرعة مُتوالية، والحرارة قد سرت في جسمه نوعًا ما، بينما خيم السكون على الأعضاء وقد انصرفوا في اهتمام بالغ إلى مراقبة اللعب، وامتقع وجه كل منهم، ولكن كان وجه مستر مالتس أشد صفرة وامتقاعًا، وعيناه زائغتان في بريق محموم وانكفأت رأسه، وأخذت يداه تتحسان طريقهما إلى فمه، ثم ضغط بهما على شفتيه، وكان من الجلي أن عضو الشرف في غاية من المُتعة والاستهواء.

وقال الرئيس: انتبهوا أيها السادة، وأخذ يوزع الورق في بطء على المنضدة، ويتوقف حتى كشف كل واحد عن ورقه، وتردد تقريبًا كل فرد منهم، وكان أحيانًا من المُمكن مُشاهدة أصابع كل لاعب منهم وقد جمدت أناملها حتى أصبح عاجزًا لحظة عن أن يظهر ورقته.

وعندما اقترب دور الأمير شعر بأن اضطرابه يزداد، ويكاد يخنق أنفاسه، ولكن ما زالت في روحه طبيعة لاعب الورق الأصيل، وعرف والدهشة تملأه أنه ما يزال في نفسه بقية من السرور.

وسحب الأمير ورقة التسعة (السباتي) ووزعت على جير الدين الثلاثة البستوني، بينما كان نصيب مستر مالتوس الورقة (الدام) أو (الكولا) الذي ندت عنه صيحة من الارتياح.

وكشف الشاب صاحب الفطائر في الحال عن ورقته فكانت (الآس البستاني) وجمد أطرافه الفزع، وظلت الورقة مُستقرة على إصبعه، فهو لم يحضر إلى ذلك المكان ليقتل أحدًا، وإنما ليموت، وجزع الأمير من أجله جزعًا شديدًا أنساه الخطر المُحدق به وبصديقه.

ووُزِعَ الورق عليهم مرة أُخرى، ومع ذلك لم تظهر بعد ورقة الموت، وتوقفت أنفاس اللاعبين، ثم استلم الأمير ورقة مرة أُخرى، أما جير الدين فكانت ورقته (ديناري)، ولكن عندما كشف مستر مالتوس عن ورقته صعدت من فمه ضوضاء مُخيفة كتلك الضوضاء التي يُحدثها شيء يتحطم، ونهض من كرسيه، ثم جلس مرة أُخرى، وكأنه ليس به أثر من الشلل، لقد كانت ورقته هي (الآس السباتي)، لقد لعب عضو النادي الشرفي لعبة الموت هذه أكثر من مرة.

وانفجر الجميع يتحدثون في الحال، وتراخى اللاعبون في مقاعدهم ثم بدأوا ينهضون من حول المائدة، ويعودون إلى حجرة التدخين مثنى وثلاث، ومد الرئيس ذراعيه وتثاءب، كأنه رجل قد أدى عمله اليومي، ولكن مستر

مالتوس ظل جالسًا في كرسيه وقد احتمل رأسه بين يديه الموضوعتين فوق المنضدة، وقد أطارت بصوابه الخمر فلم يعد يتحرك، وكأنه حُطام قُضي عليه.

وانصرف الأمير وجير الدين في الحال في نسيم الليل الرطب، وقد امتلأت أنفاسهما بالرعب.

فصاح الأمير مدهوشًا: أُنقيد نفسينا بيمين في مثل هذا الأمر؟! أو نسمح لتجارة الجملة في السفك والقتل تستمر بربحها دون أن ينال أصحابها القصاص؟ لو استطعت فقط أن أحنث في يميني!

فأجابه الكولونيل: هذا مُحال بالنسبة لسموك، لأن شرف بوهيميا من شرفك، ولكني في يُسر أستطيع أن أحنث في يميني، وأرجع عنه.

فقال له الأمير: يا جير الدين، لو خدش شرفك في أية مُغامرة شاركتني فيها ما كنت أعفو عنك إطلاقًا فحسب – وإنما ما أعتقده سوف يُؤلمك كثيرًا – ألا وهو أنه لا ينبغي عليّ أن أعفو عن نفسي، وأغتفر لها شيئًا.

فأجاب الكولونيل: إني مُستعد لتلقي أوامر سموك، أنُغادر هذا المكان البغيض؟

فقال له الأمير: نعم، ناد عربة بحق السماء ودعني أنسى في نومي ذكرى العار الذي لحقنا في هذه الليلة.

ولكنه قرأ في إمعان اسم الفناء قبل أن يرحل عنه.

وحالما استيقظ الأمير صبح اليوم التالي أحضر له جير الدين صحيفه، وقد أشر له على الفقرة الآتية:

«حادث مُؤسف، في الساعة الثانية صباحًا تقريبًا كان مستر بارثلميو مالتوس، القاطن في شبستو بلاس وست بورن جروف، في طريقه إلى منزله من حفلة لدى أحد أصدقائه، فسقط على حاجز السلم في ميدان ترافالجار، فتهشمت رأسه، وكُسِرَ ساقه وذراعه، ولفظ أنفاسه الأخيرة في الحال، وكان مستر مالتوس في صُحبة أحد أصدقائه، يبحث عن عربة قبل وقوع الحادث المشئوم، وحيث أن مستر مالتوس كان رجلًا مشلولًا، فمن السلم به أن سقطته قد حدثت نتيجة لنوبة أصابته، ولقد كان الرجل البائس معروفًا في مُعظم الأوساط المشهورة المُوقرة، وإن خسارته لتترك أثرًا عميقًا في نفوس الجميع على السواء».

فقال جير الدين في جد: إذا ما كبت الأقدار على روح ما أن تذهب إلى الجحيم فورًا فهي بلا شك روح ذلك الرجل المشلول.

وأخفى الأمير وجهه بين يديه، وظل صامتًا.

وتابع الكولونيل حديثه قائلًا: إني في أتم السرور لعلمي بموته، ولكن بخصوص الشاب صاحب الفطائر فيجب أن أعترف لك أن قلبي ينزف دمًا.

فقال الأمير وهو يرفع رأسه: يا جير الدين، إن ذلك الشاب البائس كان ليلة البارحة بريئًا مثلي ومثلك، أما في هذا الصباح فإن الدم المسفوك لذلك الرجل قد وقع على رأس هذا الشاب، وكلما فكرت في رئيس النادي فإن قلبي يزداد ألمًا، لست أدري ما هي الطريقة التي أقتص بها منه، ولكن سأجعل هذا

المجرم يندم على كل ما اقترفت يداه بقدر ثقتي في الله سبحانه وتعالى، يا لها من تجربة! ويا له من درس لا يُنسى! ويا لها من لعبة ورق!

فقال الكولونيل: إنها كانت مرة واحدة ولن تتكرر.

وظل الأمير صامتًا مُدة طويلة دون أن يجيب، فارتاع لذلك جير الدين، ثم قال له: إنك لا تنوي العودة، لقد قاسيت كثيرًا من الرعب، وإن الواجبات المُلقاة على عاتق سموك، والتي يفرضها عليك مقامك تمنعك من تكرار هذه التجربة الخطيرة.

فأجابه الأمير فلوريزل: إن ما تقول يحمل كثيرًا من المعان، ولست على الإطلاق راضيًا عن قراري، ولكن ماذا تضم ملابس الحاكم العظيم؟ لا يوجد تحتها سوى جسد رجل، وإن الحافز الذي يعتمل في نفسي، لأقوى من إرادتي يا جير الدين.

فهل من المُستطاع أن أكف عن مُتابعة القدر الذي يُطارد ذلك الشاب البائس الذي تناول العشا معنا مُنذ ساعات؟ وهل من المُمكن أن أترك رئيس النادي يستمر في عمله الإجرامي دون أن يعترضه أحد؟

أيُعقل أن أبدأ مُغامرة بالغة الفتنة كهذه ثم أنصرف عنها ولا أقتفي أثرها إلى النهاية؟ لا يا جير الدين، إنك تسألني شيئًا لا يقدر عليه أي رجل، للمرة الثانية هذه الليلة سنتخذ مجلسنا على المائدة في نادي الانتحار.

وهوى جير الدين راكعًا على ركبتيه، وقال في صوت مُرتفع: اقتلني يا صاحب السمو وانتزع حياتي من جسدي، إنها ملكك، لك مُطلق الحرية فيها، ولكن لا تذهب، بالله لا تفعل.

وأجاب الأمير في شيء من العظمة والازدهاء: إن حياتك ملك لك يا كولونيل جير الدين، كنت أتوقع منك الطاعة، فلما رأيتك تمنحنيها على غير رضى من نفسك فسوف لا أُكلفك هذه المشقة ولن أطلبها حتى بعد الآن، وأزيد على قولي كلمة أخيرة، لا ترهق نفسك بخصوص هذه المسألة.

وعندئذ نهض قائد الفرسان في الحال، وقال للأمير: يا صاحب السمو، هل تسمح لي بإجازة لفترة بعد الظهر؟ فإنني كرجل شريف لا أستطيع أن أذهب مرة أُخرى إلى منزل الموت قبل أن أُرتب شئوني نهائيًا، وبعد ذلك لن أعترض على سموك وستجد في شخصي أكثر خدمك إخلاصًا وولاءً وشُكرانًا.

وأجابه الأمير: يا جير الدين العزيز إنني أشعر بالأسف دائمًا كلما اضطررتني لأن أُوجه إليك الحديث بوصفي أمير، خُذ حريتك اليوم وافعل ما شئت، ولتكن هُنا قبل الحادية عشر مساءً في نفس هيئتك بالأمس.

ولم يكن النادي في المساء التالي مُزدحمًا كما كان بالأمس، وعندما وصل الأمير وجير الدين لم يجدا أكثر من ستة أشخاص في بهو التدخين.

وانتحى الأمير برئيس النادي جانبًا وهنأه بحرارة على موت المستر مالتوس، وقال الأمير للرئيس: إنني أحب أن أُقابل الرجال القادرين، وقد وجدت فيك على التأكيد كثيرًا من هذه القُدرة والجدارة، إن لك مهنة في مُنتهى الدقة، ولكني أعلم أنك قادر على أن تُؤديها بنجاح وحرية.

وقد تأثر الرئيس بعبارات المديح التي انساقت على لسان الأمير في أسلوبه المُتعالي، فتقبلها الرئيس بشيء يقرب من التواضع، ثم استطرد

يقول: مسكين مالتي، لن يكون النادي من بعده كما كان من قبل، إن أغلب زبائني فتيان يا سيدي، فتيان يهيمون في خيالاتهم ولا تلذ لي صحبتهم، ولا يعني ذلك أن مالتي لم يكن شاعريًا، إنما أقصد القول أنني كنت أفهمه في حين لا أفهم هؤلاء الفتيان.

قال الأمير: أفهم الآن أنك كنت تحب مستر مالتوس، كان يبدو لي رجلًا فذًا، وكان الشاب صاحب الفطائر موجودًا بالحجرة، ولكنه كان يكتم الألم والحزن في صمت، ودون جدوى حاول صديقاه الجديدان أن يحملاه على الكلام، وقال في صوت مُرتفع: كم أود والحسرة تأكل قلبي لو أنني لم أدلكما على هذا المكان المعيب، انطلقا إلى الخارج قبل أن تتلوث أيديكما بالجريمة.

آه لو قُدِرَ لكما أن تسمعا صرخة الرجل وهو يسقط قتيلًا! آه لو سمعتما صوت عظامه وهي تتهشم على الرصيف! تمنيا لي لو كان في قلبيكما رحمة نحو مخلوق بائس هالك مثلي، تمنيا أن يكون حظي الليلة الآس البستوني.

وجاء عدد قليل من الأعضاء مع تقدم ساعات الليل، ولكن مع ذلك لم يزد العدد عن اثنى عشر عندما جلسوا حول المائدة، وللمرة الثانية أحس الأمير بشعور هو مزيج المتعة واللهفة المُخيفة، ولكنه دهش إذ رأى جير الدين أهدأ منه في الليلة السابقة.

وقال الأمير يُخاطب نفسه: من الغريب أن تتغير طباع الشاب في حالة ما إذا كتب وصيته أو لم يكتبها.

وقال الرئيس: أيها السادة ألقوا إليّ بانتباهكم، وبدأ يوزع الورق، ودارت الأوراق حول المائدة مرات ثلاث دون أن تظهر الورقتان المطلوبتان، وفي المرة الرابعة بلغ الاضطراب حدًا مُخيفًا، فقد كان عدد الأوراق مُطابقًا لعدد الأشخاص الجالسين، وكان الأمير يجلس في المقعد الثاني على يسار الرئيس، فقد كانت ورقته هي التي تسبق الأخيرة.

وكشف اللاعب الثالث ورقته فكانت آسا أسود (الآس السباتي) والذي تلاه كان نصيبه الأس الديناري، ومن بعده... وهكذا.

ولكن الآس البستوني لم يكن قد نزل إلى المائدة، وأخيرًا كشف جير الدين – وكان على يسار الأمير – عن ورقته وكانت آسا (آس الكوم).

ولقد توقف قلب الأمير عن الحركة عندما تطلع إلى نصيبه على المائدة، كان رجلًا شُجاعًا، ومع ذلك فقد تصبب العرق من وجهه، كان لديه خمسون احتمال في المائة أن يكشف عن الأس البستوني، وقلب الورقة فكانت هي (الآس البستوني).

وعندئذ انطلق في رأسه هدير ورنين وزاغت المائدة من أمام ناظريه، وسمع من الشخص الذي على يمينه ضحكة لا تدل على السعادة ولا تُعبر عن الخيبة، وإنما هي مزيج منهما، وتراءى له الجميع وهم يُبارحون المائدة، ولكن عقله كان يزدحم بأفكار أُخرى.

وقد تبين له مبلغ غفلته وإجرامه، لأنه قامر بمستقبله ومستقبل شعب شُجاع أولاه ثقته، كل هذا وهو في ريعان الشباب والصحة وريس لأحد العروش.

صاح قائلًا: يا إلهي، غُفرانك يا إلهي.

عندئذ ذهب عنه الروع وعادت إليه السكينة في الحال.

ومما أثار دهشته أن جير الدين كان قد اختفى، ولم يكن بالحجرة إلا شخص واحد هو الذي كان سيتولى الإجهاز عليه، كان يتحدث إلى الرئيس.

أما الشاب صاحب الفطائر فقد تقدم إلى الأمير وهمس في أُذنه: لو أنني أملك مليونًا من الجُنيهات لدفعتها ثمنًا لمصيرك.

وعندما ابتعد الشاب عن الأمير فكر هذا أنه كان بوده لو باع له حظه بثمن أقل بكثير مما ذُكر.

وانتهى الحديث الهامس بين الرئيس وبين الرجل الذي أُسندت له مهمة قتل الأمير، وخرج صاحب الآس السباتي وقد بدا عليه أنه يعرف كيف يُؤدي واجبه، وتقدم الرئيس من الأمير ومد له يده قائلًا: إنه ليسعدني يا سيدي أن قابلتك ومسرور إذ استطعت أن أُقدم لك هذه الخدمة اليسيرة على الأقل، وليس لك أن تشكو من التواني أو التأخير في الليلة الثانية، يا لك من سعيد الحظ!

وحاول الأمير أن يلفظ بشيء ردًا على الرجل، ولكن دون جدوى، لقد كان حلقه جافًا وخُيل له أن لسانه أصابه الشلل.

سأله الرئيس وهو يتكلف الانزعاج: يبدو أنك مُتعب قليلًا، هذا يحدث لأغلب السادة، هل لك في قليل من البراندي؟

وتقبل الأمير ما عُرِضَ عليه وعلى التو أفرغ له الرئيس قليلًا من الشراب في كأسه: وقال الرئيس وقد انتهى الأمير من كأسه: يا لهذا المسكين، لقد شرب كأسين مُترعين ولكنهما لم تفده إلا قليلًا.

قال الأمير: أما أنا فأشعر بالتحسن، قال ذلك وهو يحس بحيوية أكثر، ها أنذا قد عُدت إلى حالتي الأولى كما ترى، وعلى ذلك فاسمح لي أن أسألك ما هي تعليماتك لي؟

قال الرئيس: عليك أن تسير في طريق استراند في اتجاه المدينة (لندن) وعلى الرصيف الأيسر إلى أن تُقابل الرجل الذي بارح الحُجرة منذ قليل، وإذا سمحت عليك أن تطيع تعليماته من ذلك الوقت فصاعدًا، إنه يُمثل في شخصه سُلطة النادي طوال الليل، والآن.. أرجو لك نُزهة طيبة.

ورد الأمير فلوريزل على تحيات الرئيس بشيء من الارتباك ثم انصرف، ومر في طريقة بحجرة التدخين حيث كان أغلب الأعضاء يشربون (الشمبانيا) التي كان هو قد طلب بعضها ودفع ثمنها، وكم كانت دهشته إنه لعنهم في أطواء نفسه.

وارتدى قُبعته ومعطفه وتناول مظلته من أحد الأركان، ولما خطر بباله أن يقوم بهذه الأفعال العادية لأخر مرة في حياته ضحك لنفسه ضحكة كان لها وقع كئيب في أُذنيه.

ولم يجد في نفسه رغبة ليبارح المكان، وتوجه إلى النافذة بدلًا من الباب، فلما رأى المصابيح والظلام في الخارج ارتدت إلى نفسه بعض الطمأنينة والثقة وقال لنفسه: لا تشجع، وكن رجلًا، لا بُد أن أنتزع نفسي

من هُنا، وعندما وصل الأمير إلى ركن (بوكس كورت) انقض عليه ثلاثة رجال ودفعوا به دون تكلف إلى داخل عربة انطلقت به في الحال وكان شخص ما بالداخل.

وقال صوت يعرفه الأمير حق المعرفة: هل سيغفر لي الأمير هذا الشوق لصُحبته؟

وألقى الأمير بنفسه على جير الدين يُعانقه وقد تنفس الصعداء وهو يصيح: هل سيُقدر لي أن أفيك حقك من الشكر؟ ولكن كيف دبرت هذا؟ ورغم أنه كان على استعداد لأن يموت إلا أن السرور قد استولى عليه عندما عاد من جديد إلى الحياة المليئة بالأمل وإلى صداقة جير الدين.

قال الكولونيل مُجيبًا: إنك تستطيع أن ترد لي الشكر بأن تبتعد مُستقبلًا عن مثل هذه المخاطر.

وأما عن سؤالك الثاني فقد دُبِرَ كل شيء بسهولة، فقد ذهبت بعد ظهر اليوم وقابلت أحد رجال البوليس وقد وعد بكتمان الأمر وتناول أجره على ذلك، وأما الذين اشتركوا في إنقاذك فهم خدمك، وكان منزل (بوكس كورت) مُحاصرًا مُنذ المساء، وهذه العربة هي إحدى عرباتك كانت في انتظارك منذ ساعة أو بعض ساعة.

وسأل الأمير: وماذا حدث لذلك الرجل البائس الذي كان مُزمعًا أن يقتلني؟

أجابه الكولونيل: لقد قُبِضَ عليه بمجرد أن غادر النادي، وهو الآن في القصر ينتظر كلمتك فيه، وهُناك سوف يلحق به شركاؤه في الجريمة.

فقال له الأمير: إنك يا جير الدين قد أنقذتني رغم أوامري الصريحة، فلست مدينًا لك بحياتي فحسب، وإنما كذلك قد لقنتني درسًا، ولن أكون جديرًا بمركزي إذا لم أبد لك اعترفي بالجميل بوضعك مُدرسًا لي، ولتكن لك مُطلق الحرية في اختيار طريقة تنفيذ ذلك.

وسادت فترة في الصمت، بينما كانت العربة تُتابع سيرها خلال الطرقات، واستسلم كلا الرجلين لأفكاره.

وأخيرًا قطع الكولونيل جير الدين حبل الصمت قائلًا: إن في قصر سموك الآن عددًا لا يُستهان به من المقبوض عليهم، وإن بينهم على الأقل واحدًا لا بُد أن يُقدم للعدالة، ولكن القسم الذي ارتبطنا به يمنعنا من أن نُبلغ الأمر للبوليس، وكذلك مركزك، حتى ولو تحللت من القسم فهل لي أن أسأل سموك ماذا قررت أن تفعل؟

قال الأمير: لقد استقر رأيي على أن يدخل رئيس النادي في مُبارزة ولم نبق إلى أن نختار له خصمًا.

قال الكولونيل: لقد أذنت لي يا صاحب السمو أن أختار مُكافأتي بنفسي، فهل تسمح لي أن يكون أخي خصمًا للرئيس؟ إنها مُهمة مُشرفة، ولكن أُؤكد لسموك أن الفتى سيُنفذها على أكمل وجه.

قال الأمير: إنك تطلب مني معروفًا غير مُحبب إلى نفسي، ولكن لا أستطيع أن أرفض لك طلبًا.

وهنا قَبّلَ الكولونيل يد الأمير بتأثر عظيم، وفي تلك اللحظة وصلت العربة إلى قصر الأمير الفخم.

وبعد ساعة ذهب الأمير وهو في ملابسه الرسمية التي تحمل نياشين بوهيميا، واستقبل أعضاء نادي الانتحار.

قال لهم الأمير: أيها الأغبياء الأشرار، الذين ساقتكم الأقدار على أن تلتحقوا بهذا النادي مدفوعين بشعور النقص في المال، أو هناءة البال، أو خلو اليد من العمل، ستنالون جميعًا مالًا وعملًا على يد ضباطي، وأما هؤلاء الذي تُؤنبهم ضمائرهم لما اقترفوه من إثم فيجب عليهم أن يتجهوا بأفئدتهم نحو قوة أعلى وأسمى من كل إنسان، نحو الله.

إني لأشفق عليكم جميعًا شفقة عميقة لا يُمكنكم أن تتخيلوا مقدارها، وغدا تقصون عليّ قصصكم، وكلما كان رائدكم الصراحة، كلما كان رائدي مُساعدتكم المساعدة الجدية.

والتفت إلى الرئيس واستطرد قائلًا: أما بخصوصك أنت فلعلي أُسيء إليك لو قدمت إليك يد المُساعدة وأنت رفيع المنزلة، ولكن عوضًا عن ذلك سأُقدم لك شيئًا قد يُسليك.

ثم وضع يده على كتف أخ جير الدين الأصغر واستأنف حديثه قائلًا: هاك أحد ضُباطي، الذي يرغب في القيام بجولة صغيرة في أوربا، وأطلب منك أن تسدي لي معروفًا في أن تصحبه.

ثم استطرد وقد غير من نبرتا صوته ولهجته: أتجيد الرماية بهذا المُسدس؟ فقد تلجئك الحاجة إليه، فإذا ما سافر اثنان سويًا، فمن حُسن التصرف أن يكون هُناك استعداد تام لكل شيء، ودعني أضيف إلى قولي أنك إذا فقدت جير الدين الصغير في الطريق فسيكون لديّ دائمًا عضو

آخر من أهل بيتي يتقدم ليكون لك رفيقًا، وإنه لمشهود لي أيها السيد الرئيس بأني بعيد النظر، واسع السلطة والنفوذ.

واختتم الأمير حديثه بتلك الكلمات التي ألقاها في قسوة، وفي الصباح التالي وظف جميع أعضاء النادي في وظائف مُناسبة ومنحهم من كرمه المال الوفير، وبدأ الرئيس رحلته تحت إشراف مستر جير الدين واثنين من أخلص وأمهر الخدم اللذين تدربا تدربًا مُمتازًا في بيت الأمير.

أضف إلى ذلك أنه قد أقام عُملاءه الموثوق فيهم، المُؤتمنين على حفظ السر، بالمنزل في بوكس كورت، وكانت جميع الرسائل، والزائرين وموظفي نادي الانتحار تحت رقابة الأمير فلوريزل بنفسه.

القاص والقصة

هو روبرت لويس ستيفنسون الكاتب والقصصي والشاعر الإنجليزي، وكان الإبن الوحيد لتوماس ستيفنسون المهندس المدني، ووُلِدَ في عام ١٨٥٠ وكان ضعيف البنية منذ نعومة أظفاره، وكادت الحمى المعوية تقضي عليه وهو في الثامنة من عمره ودرس الهندسة بعد تركه المدرسة في عام ١٨٧٦.

ولم تكن حياته سهلة مُيسرة، ثم عكف على دراسة القانون في عام ١٨٧١ وانخرط في سلك المُحاماة وغشى المحاكم في أدنبرة عام ١٨٧٥.

وفي خلال هذا الوقت بدأ يكتب وينشر كتاباته في صحف دورية مُتعددة وعاقه ضعف صحته عن أن يُتابع عمله في المحاماة، ثم أمضى أربعة أعوام في أسفار إلى فرنسا وألمانيا وأسكتلندة ونشر تفاصيل هذه الرحلة بعنوان «رحلة داخلية ورحلات على ظهر حمار في جبال سيفن».

وفي أثناء هذه الرحلات شعر بتحسن صحته تحسنًا لا بأس به، ولكنه في عام ١٨٧٩ سمع أن سيدة تُدعى مسز أوسبرن التي كان قد قابلها من قبل في فرنسا قد أصابها المرض ولزمت دارها في كاليفورنيا، وعلى الرغم من ضآلة ما يملك من مال فقد وطد العزم على زيارتها، فسافر في ظروف قاسية فكانت رحلته وبالاً على صحته، ثم تزوج السيدة أوسبرن عام ١٨٨٠ ثم عادا سويًا إلى أُسكتلندة، وفي خلال ذلك الوقت كان ستيفنسون مريضًا مرضًا شديدًا، فأرسل إلى دافوس حيث مكث بها حتى عام ١٨٨١ ثم ذهب هو وزوجته إلى أُسكتلندة مرة أُخرى، وحينذاك كتب

قصته «جزيرة الكنز» إحدى روائع قصصه المشهورة، ونشر بعض مُؤلفاته، وأصبح ستيفنسون كاتبًا محبوبًا لأول مرة.

وكان تجول بخاطره أفكار عديدة من عمل خصب وفير، ولكن في عام ١٨٨٤ ساءت صحته عن ذي قبل إلا أنه استمر في الكتابة كلما أحس من نفسه القدرة على الكتابة ونشر كتابه «رياض الأشعار للأطفال» عام ١٨٨٥ مصحوبًا بقصص مُختلفة، ثم كتب عام ١٨٨٦ «القضية الغريبة لدكتور جيكل ومستر هايد» التي نالت حب كل من قرأها.

وأبحر كل من ستيفنسون وزوجته إلى نيويورك عام ١٨٨٧ ولم يرجع إطلاقًا إلى أوربا، وظل فترة من الزمن في أمريكا يستجم وينصرف إلى الكتابة، وفي ١٨٨٨ ذهب إلى هونولولو ثم قاما برحلة عبر البحر استغرقت ستة أشهر حتى وصلا إلى ساموا في جُزر جلبرت ومكثا بها ستة أسابيع قبل أن يبحرا إلى سدني.

وإن الأربعة أعوام التي قضاها في أواخر سنين حياته في ساموا كانت حافلة بالسعادة والهناء والصحة الطيبة.

وفي ١٨٩٠ بنى لنفسه بيتًا في فيليما حيث سماه المواطنون توسيتالا وأعانهم ستيفنسون بكل جوارحه وقوته على أن يسترد مليكهم سلطانه المفقود، وعندما انتهت جهوده المُتصلة بِمُساعدة أهل سموا انصرف إلى كتابة عدة قصص عن الحياة الإسكتلندية من بينها قصة «كاتريونا» التي تُعتبر خاتمة، وتتمة لقصة «الاختطاف».

وفي ١٨٩٣ دهم المرض ستيفنسون وأُسرته، وفي نفس الوقت هزم ملك ساموا هزيمة مُنكرة وقضى على أتباعه من جماعة الساموا القضاء الأخير، الأمر الذي أزعج ستيفنسون وأقض مضجعه، وكانت نتيجة مُراسلاته مع الصُحف الإنجليزية أن كلًا من رئيس القُضاة والمجلس البلدي قد عزلا من وظيفتيهما، ثم ذهب في خريف ذلك العام نفسه إلى جُزر الساندويش بقصد تغيير الجو، إلا أن المرض عاوده ففضل أن يعود إلى ساموا مرة أُخرى.

وفي عام ١٨٩٤ اهتم أصدقاؤه بنشر مُؤلفاته جميعًا في ثمانٍ وعشرين مُجلدًا، وظل ستيفنسون يصدر الكُتب ويدبج المقالات، إلا أن السكتة القلبية قضت عليه بينما كان يملي قصته «سد هرمستون» على طريقته المُعتاده في إملاء القصص.

وحمل جثته ستون مُواطنًا من أهل ساموا إلى قمة جبل فايا الذي يطل على المحيط الهادي ليكون مرقده الأخير كما كان يحب أن يُدفن في هذه البُقعة.

كان ستيفنسون كاتبًا ساحر القلم، وهو وإن لم يحتل مركز الصدارة ويتربع على عرش المؤلفين والكُتاب الإنجليز الكبار، إلا أنه كان القصاص والكاتب الفريد في عصره، والذي تموج قصصه ومقالاته بقوة الجاذبية، وفيض من الحيوية.

القصة:

هذه القصة قصد بها تنبيه الشباب إلى مواطن الزلل التي تحيط بهم في تلك المرحلة التي تكون فاصلًا بين عهدين عهد التلميذة والتحصيل والتعليم وعهد الرجولة والاعتماد على النفس، ففي خلال تلك المرحلة تتعرض نفس الشاب لأزمات حادة قد تُزلزل عقائده وأفكاره، وتفقده لذة التمتع بالحياة أو تعطيه فكرة قاتمة عن الناس وعن العالم، فتظلم الدنيا في عينيه وتضيق به الحياة، ويضيق بالحياة.

وتتلخص القصة في أن الأمير فلوريزيل وتابعه (جير الدين) تعرفا على شاب يئس من الحياة وقرر الانتحار، وهو الذي عرفهما طريق نادي الانتحار وقدمهما إلى رئيس النادي، وفي داخل النادي اكشفت الأمير أُمورًا خطيرة عن الطريقة المُتبعة لاختيار العضو المُنتحر والعضو الذي يُنفذ فيه الموت؛ وكيف أن حادث الانتحار كان يُؤول على أنه حادثة عادية أدت إلى موت ذلك الشخص، وتتطور حوادث القصة حتى تصل إلى أزمة خطيرة عندما يقع دور الانتحار على الأمير نفسه، ولا ينقذ الأمير من هذا المصير إلا صديقه وتابعه عندما يُحاصر النادي برجاله ويقبضون على الأعضاء جميعًا وعلى الرئيس، ويعطيهم الأمير درسًا قيمًا في ضرورة مُواجهة الحياة بما فيها من صعوبة ومشقة، وأن لذة العيش هي الصراع والكفاح ضد أزمات الحياة؛ كما يقول لهم مُخاطبًا في نهاية القصة: «أيها الأغبياء الأشرار الذين ساقتكم الأقدار على أن تلتحقوا بهذا النادي مدفوعين بشعور النقص في المال، أو هناءة البال، أو خلو اليد من العمل ستنالون جميعًا مالًا وعملًا من ضباطي، وأما هؤلاء الذين تُؤنبهم ضمائرهم

لما اقترفوه من إثم فيجب عليهم أن يتجهوا بأفئدتهم نحو قوة أعلى وأسمى من كل إنسان، نحو الله.

«إني لأشفق عليكم جميعًا، شفقة عميقة لا يُمكنكم أن تتخيلوا مقدارها، وغدًا تقصون عليّ قصصكم، وكلما كان رائدكم الصراحة، كلما كان رائدي مُساعدتكم المُساعدة الجدية».

الفهرس